بودوستنيك وياخوت

■

عرض موجز للمادية الديالكتيكية

■

دار التقدم
موسكو

مقدمة

ان هذا الكتاب المدرسي الذي نضعه بين ايدي القــراء يستهدف اطلاعهــم على المفاهيم والمسائل الاساسية في المادية الديالكتيكية بوصفها احد الاجزاء المكونة للفلسفة الماركسية-اللينينية .

لقد راعى مؤلفا هذا الكتاب المدرسي واقع ان القـراء سيدرسون للمرة الاولى الفلسفة الماركسية-اللينينية ، لذا جهدا لتوضيح مفاهيم ومقولات المادية الديالكتيكية بشكل مبسط ما أمكن ، مع سرد الامثلة البسيطة المفهومة المأخوذة من ميدان العلم والحياة الاجتماعية .

ويأمل المؤلفان بان هذا الكتاب المدرسي الذي الّفاه سيكون مفيدا لجميع الراغبين في الاطلاع على الفلسفة الماركسية-اللينينية .

المؤلفان

الفصل الاول

فلسفة الماركسية هي المادية الديالكتيكية

١ ـ ما هي الفلسفة

تعلمنا التجارب اليومية بانه علينا ، كي نفهم فهما صحيحا ما يدور في العالم المحيط بنا ، ان نسترشد بنظام علمي تماما في النظر الى الحياة ، الى العالم كله ، الى مكاننا في العالم ، الى هذه او تلك من الظاهرات والاحداث . ناهيك بان هذا النظام من النظر الى العالم ، والتصور عنه يلزمان الانسان لا لكي يوضح اسباب الاحداث الدائرة وحسب ، بل ايضا لكي يحدد موقعه في العالم ويؤثر في هذه الاحداث بصورة فعالة ، ولكي يصبح مساهما نشيطا في النضال التحرري الذي يتسع مداه في وقتنا هذا . وبتعبير آخر ، لا يمكن فهم الاحداث الدائرة من حولنا الاّ اذا استرشدنا **بنظرة صحيحة الى العالم تمثل مجمل المفاهيم عن الحياة ، عن العالم كله ، عن هذه او تلك من الظاهرات والاحداث** . ومعرفة كهذه انما تعطيها الفلسفة . وهذا يعني ان بناة الحياة الجديدة

بحاجة الى المعارف الفلسفية ايضا ، بجانب المعارف الاخرى ، كحاجتهم الى الهواء . ومن يدرس الفلسفة ، يُنْمِ لديه فكرة البحث ، ويوسع بصيرته وموقف التمعن في كل ما يدور في العالم المحيط به . وليس عبثا ان كلمة «فلسفة» مترجمة عن اللغة اليونانية القديمة تعني حب الحكمة ، حب المعرفة .

بيد انه ينبغي الاخذ بعين الاعتبار بان ليس اية فلسفة كانت ، تعطي تصورا علميا عن العالم ، نظرة علمية الى العالم . فبعض الفلاسفة ، لا سيما في البلدان الامبريالية (الاستعمارية) ، على العكس ، يشوهون الاحداث الدائرة في العالم . وهذا يعني انه ليس بمستطاع اية فلسفة كانت ان تصبح دليلا في الحياة ، ذلك لانه ليس كل نظرة الى العالم هي نظرة صحيحة . ان الفلسفة العلمية هي التي بمستطاعها اعطاء النظرة العلمية الى العالم . وتثبت التجربة أن الناس ، فقط بامتلاكهم المعارف الفلسفية العلمية ، يصلون الى الاعتقادات الراسخة ويذودون بثقة عن مصالح شعبهم ، ويدافعون عن حرية واستقلال بلادهم . وهذا الايمان بصحة الآراء يحفز الناس للقيام باعمال عظيمة باسم السلم والسعادة على الارض .

بمَ تفسَّر اذن هذه الاهمية البالغة للفلسفة ؟

اذا كانت الفيزياء وعلم الفلك والبيولوجيا (علم الاحياء) والعلوم الاخرى تدرس القوانين التي لا يخضع لها الاّ قسم من ظاهرات الطبيعة ، فان الفلسفة تدرس القوانين الاكثر شمولا التي تخضع لها كل الظاهرات في العالم ، القوانين التي بموجبها يتطور العالم بأسره . ولهذا فان **الفلسفة هي العلم عن القوانين الاكثر شمولا لتطور الطبيعة والمجتمع والتفكير البشري** . ولكن يكون من الخطأ لو استخلصنا من هذا استنتاجا مفاده ان الفلسفة تستطيع الاستغناء عن العلوم الاخرى ، وهذه بدورها عن الفلسفة . فالفلسفة لا تستطيع ان تكون نظرة تقدمية طليعية الى العالم الاّ حين تعتمد في استنتاجاتها على منجزات العلوم الاخرى . والفلسفة الماركسية-اللينينية هي بالذات هذه الفلسفة في وقتنا . فهي وثيقة الارتباط بالعلوم الاخرى ، وتعتمد على احدث منجزات العلم ، وتسلح بدورها العلم المعاصر بالنظرة الفلسفية الاكثر تقدما الى العالم وبطريقة المعرفة الاكثر طليعية ، وتساعده على احراز المعارف الجديدة الضرورية للبشرية .

ان الفلسفة تعطي الناس مجموعة من نظرات معينة الى العالم ، اي انها تسلحهم بمفاهيم عنه ، وهنا تكمن قوتها الهائلة . غير اننا قلنا ان النظرات الى العالم ، المفاهيم عن العالم تختلف عند مختلف الناس . فلدى بعضهم قد تكون علمية وتقدمية ، ولدى البعض الآخر منافية للعلم ، بل ورجعية .

مثلا ، لو اخذنا مسائل فلسفية مثل المسائل المتعلقة بمعنى الحياة ، والسعادة ، والحرية ، وما الى ذلك ، لوجدنا ان فهمها يختلف بالنسبة لمن يناضل في سبيل حرية وسعادة الشعوب ، وبالنسبة لمن يضطهد الشعوب . فالمناضلون ضد الاستعمار والامبريالية يفهمون الحرية والسعادة بصورة مغايرة لفهم الامبرياليين والمستعمرين .

ان الفهم المختلف للمسائل الفلسفية يتوقف ، كما يبدو ، قبل كل شيء على الوضع الذي يشغله هؤلاء واولئك الناس في الحياة ، في المجتمع . ففي المجتمع الذي تكون فيه طبقات وفئات اجتماعية مختلفة تتصارع فيما بينها ، تكون النظرات الفلسفية ، كما يبين التاريخ ، مختلفة ايضا . لذا يستحيل ان تكون في هذا المجتمع فلسفة واحدة ، نظرة واحدة

الى العالم بالنسبة للمظلومين والظالمين . فالفلسفة تدافع دوما عن مصالح اولئك الذين تخدمهم . وهذا يعني ان الفلسفة لا تستطيع ان تكون محايدة عندما يدور نضال الشعوب في سبيل التحرر من الظلم الاجتماعي والاستعماري .

ان ما قيل يفيد ان الفلسفة هي دائما **حزبية** . اي انها ، بتعبير آخر ، تدافع عن المصالح الطبقية ، الحزبية . لذا كان على الدوام في فلسفة كل عصر تاريخي احزاب متصارعة ومن هذه الاحزاب **المادية والمثالية** .

قبل كل شيء ينبغي الاخذ بعين الاعتبار بانه كثيرا جدا ما يشوّه المعنى العلمي لهذين المفهومين . فالطبقات الرجعية تسعى بكل ما اوتيت من قوة لكي تكوّن لدى الشعب رأيا يزعم بان المادي هو ذاك الذي يهتم بالمنافع الشخصية ، هو ذاك الذي ينصرف كليا الى الاهتمام بالمصالح المادية . اما المثالي فتصوره بانه ذاك الذي يخدم قضية ما او فكرة او مثالا اعلى بصورة منزهة عن الغرض . ان هذا التصور المبتذل المشوه عن المادية والمثالية لا يمت بصلة ابدا الى الفرق الذي يوجد بالفعل بين

المعسكرين الفلسفيين الاساسيين . ان ما يفصل بينهما يوجد في مجال آخر تماما . ومن السهل ان يفهم المرء ذلك اذا ما تمعن فيما يلي .

توجد بين جميع المسائل التي تدرسها الفلسفة ، بوصفها احد العلوم القديمة العهد ، **مسألة اساسية** ، يتوقف على حلها طابع الفلسفة نفسها ، اي ان هذه المسألة تمكّن من تبيان الفلسفة التي سيكون للمرء شأن بها .

فما هو اذن جوهر المسألة الاساسية في الفلسفة ؟

اننا نصادف في العالم كثرة من الاشياء والظاهرات . ان بعضها ، مثلا ، كالحجر والشجر والرعد والبرق والماء والحيوانات والنباتات وكثرة غيرها توجد مستقلة عن وعي (ادراك) الانسان . ونحن نعرفها بفضل تأثيرها في اعضاء حواسنا : نستطيع رؤيتها ولمسها ، نستطيع ان نقيسها وان نزنها . ولكن ثمة نوعا آخر من الظاهرات مثل الفكر والاحساس والارادة والرغبة . فهذه لا نستطيع رؤيتها او سماعها ، ويستحيل قياسها او وزنها . ان هذه الظاهرات لا توجد الاّ في وعي الانسان .

وهذا يعني ان في العالم مجموعتين من الظاهرات : بعض الظاهرات مستقلة عن وعينا ، توجد موضوعيا ، اي بحد ذاتها . انها الظاهرات **المادية** . اما المجموعة الاخرى من الظاهرات فلا توجد الاّ في وعينا . انها الظاهرات **المثالية ، الروحية** . وهكذا تبرز دوما المسألة التالية : ما هي اذن الصلة التي تربط الظاهرات المادية والروحية (المثالية) ؟ اي منها يسبق الآخر : الظاهرات المادية تسبق المثالية ام العكس ؟ وبتعبير آخر ، ما الذي ينبغي اعتباره الاولي : العالم المادي ، الطبيعة ام الوعي ؟ هذا هو احد جانبي المسألة الاساسية في كل فلسفة . اما الجانب الآخر من هذه المسألة فقوامه ما يلي : أيستطيع الانسان معرفة العالم وتكوين تصور **صحيح** عنه ، ام انه عاجز عن ذلك ؟ ان الفلاسفة يجيبون باشكال مختلفة على هذه المسألة الاساسية في الفلسفة . وتبعا لكيفية حلهم لهذه المسألة ينقسمون الى معسكرين كبيرين . فالفلاسفـــة الذين يعترفون باولية العالم المادي ، الطبيعة ، ويعتبرون الوعي (الادراك) ثانويا وناتجا عن الطبيعة يؤلفون **المعسكر المادي** في الفلسفة ، اما اولئك الذين يعتبرون

الوعي هو الاولي وان الطبيعة ثانوية وناتجة عن الوعي فيؤلفون **المعسكر المثالي** في الفلسفة . في هذا بالذات يكمن الفرق الفعلي بين هذين المعسكرين . فمنذ اكثر من ٢٥٠٠ سنة وهذان المعسكران الفلسفيان ، هذان الاتجاهان الاساسيان في الفلسفة يوجدان ويتصارعان . ان الماديين اذ يعتمدون على منجزات العلم يبرهنون بصورة مقنعة بان الاشياء والظاهرات المادية المحيطة بنا توجد بحد ذاتها ، اي خارج وعينا . مثلا ، ان الارض والحجارة والبرق والاشجار وما الى ذلك توجد مستقلة عن الانسان ووعيه . وفضلا عن ذلك ، برهن العلم ان العالم موجود قبل ان يظهر الانسان ووعيه على الارض . اما المثاليون فيزعمون ، رغم معطيات العلم ، بان العالم المحيط بنا وجميع الاشياء والظاهرات المادية قد ولدها الوعي . انهم يعتبرون انه في البداية يوجد الفكر ، المفهوم ، الفكرة ، ثم تولّد الافكار والفِكر الاشياء والمواد .

يعرف تاريخ الفلسفة نوعين من المذاهب المثالية : المثالية **الموضوعية** والمثالية **الذاتية** . ان الموضوع بوجه عام هو ما يوجد خارج الانسان

ومستقلا عن وعيه . ان بعض المثاليين ينطلق من ان فكرة موجودة موضوعيا هي التي ولدت العالم . ولذا يسمون **مثاليين موضوعيين** . وفي عدادهم مثلا ، الفيلسوف اليوناني القديم افلاطون ، والفيلسوف الالماني في القرن التاسع عشر هيغل ، وكذلك ممثلو المذهب الفلسفي الرسمي للكنيسة الكاثوليكية-التوماسية الجديدة .

اما الذاتي فهو ما يميز ويلازم الشخص المعني ، الانسان المعني ، اي الذات . يعتبر بعض الفلاسفة وبينهم ، مثلا ، الفيلسوف الانكليزي بركلي (القرن الثامن عشر) انه لا يوجد في الواقع غير الانسان ، الذات ، ووعيه . اما الاشياء فلا توجد ، حسب زعمه ، الا حينما يدركها الانسان بحواسه ، عندما يحسها ويراها ويسمعها ويلمسها . واذا لم يدركها الانسان بحواسه ، فلا وجود للاشياء . ان العالم موجود ، حسب رأيه ، في الوعي (الادراك) ، في احساسات الذات . « يوجد – يعني ادركته الحواس » . « الاشياء هي تركيبات احساسات » – هكذا كان يزعم بركلي واتباعه . ان هذا يشبه الزعم القائل بان الذات ، الانسان هو الذي يلد العالم ، ويلده كل

مرة من جديد . ينجم عن هذا ، ان العالم يزول لمجرد ان يغمض الانسان عينيه . لقد اطلق على هذا النوع من المثالية اسم **المثالية الذاتية** .

ان المثالية ، الموضوعية والذاتية على حد سواء ، تدحضها التجربة البشرية ، الحياة اليومية التي تثبت صحة النظرة المادية الى العالم .

ففي رأي الماديين توجد الاشياء والظاهرات المحيطة بنا واقعيا ، اي مستقلة عنا ، عن وعينا . وهذا الرأي هو رأي كل انسان سليم ، لان الحياة ، التجربة اليومية تعلمه هذا على الدوام . ان الماديين يحكمون على الاشياء كما هي في واقع الامر : في البداية يوجد الاناناس ، نحن نراه ونحسه . ان الاناناس يثير بخواصه الموضوعية المستقلة عن الانسان احساسات معينة كالحموضة والحلاوة والخضرة وما الى ذلك . هذه هي النظرة المادية العفوية الى العالم التي يسترشد بها الناس في حياتهم العملية . ان الفلاسفة الماديين يأخذون بهذه النظرة الى العالم ويؤكدونها علميا ، فيجعلونها نظرة مادية واعية . لهذا السبب كانت المادية الفلسفية ، بخلاف المادية العفوية ، مادية واعية تقوم على

اسس علمية وتساعد الناس على فهم ظاهرات الطبيعة واحداث الحياة الاجتماعية فهما صحيحا .

مما تقدم تتضح الاهميـــة الكبرى التى تتسم بها المسألة الاساسية في الفلسفة . وليس من قبيل الصدفة كون هذه المسألة هي المحور المركزي الذي يدور حوله الصراع بين الماديين والمثاليين منذ اقدم الازمان حتى ايامنا هذه . وهذا الصراع الفكري بين المادية والمثالية يعكس صراع الطبقات ، صراع القوى التقدمية والرجعية في المجتمع . وفي هذا الصراع ، كانت المادية دوما ، كقاعدة ، تدافع عن مصالح القوى التقدمية في المجتمع ، بينا كانت المثالية ، ما عدا بعض الاستثناءات ، تدافع عن مصالح القوى الرجعية .

ان دراسة وفهم العالم يتوقفان ايضا على **طريقة** المعرفة التي يستخدمها هذا الفيلسوف او ذاك . فالطريقة الفلسفية التي بمعونتها تدرس جميع ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية تتسم باهمية كبرى بالنسبة للفلسفة والعلم . فاذا نحن اخترنا لدى دراستنا للطبيعة سبيلا قويما ، اي اذا استرشدنا بطريقة فلسفية صحيحة فاننا نتمكن من

كشف اسرار الطبيعة بصورة ناجحة . اما اذا كان السبيل اي الطريقة التى اختيرت غير صحيحة فاننا نخاطر بان نتيه في الظلمات وقد لا نصل الى الهدف المرسوم ، اي لا نحصل على معارف صحيحة عن الطبيعة .

لكل علم طرائقه الخاصة لدراسة الظاهرات . مثلا ، تستخدم البيولوجيا المعاصرة طريقة الملاحظة ، طريقة الاختبار ، الخ . ، غير ان بعض العلوم الخاصة لا تطبق طرائقها الا لدراسة بعض الظاهرات ، وكل منها في مجال معارفه . اما مهمة الفلسفة فتكمن في تبيان سبيل ، طريقة لدراسة جميع الظاهرات في العالم ، لا لدراسة بعض الظاهرات في الطبيعة والمجتمع . وهذا يعني ان مهمة الفلسفة تكمن في اعطاء طريقة فلسفية عامة للمعرفة من شأنها ان تسترشد بها كل العلوم بجانب تطبيق طرائقها الخاصة .

ما هي اذن طرائق معرفة العالم التي استنبطتها الفلسفة في تاريخه بأكمله ؟ هنالك طريقتان فلسفيتان ، سبيلان لمعرفة جميع الظاهرات . احداهما تتطلب النظر الى جميع الاشياء والظاهرات

في تطورها المستمر وتغيرها الدائم . ان هذه الطريقة تسمى الطريقة **الديالكتيكية** . في العهد القديم كان للكلمة « ديالكتيك » معنى يختلف عن المعنى الحالي . فقد كان المفكرون اليونان القدماء يفهمون بالديالكتيك اسلوب اقرار الحقيقة في الجدال ، في صراع مختلف الآراء . اما الآن **فيفهم بالديالكتيك طريقة فلسفية لمعرفة الواقع ، تقول بان كل شيء في العالم يوجد في تطور وتغير** . كل شيء يجري ، كل شيء يتغير ، كما قال الفيلسوف اليوناني القديم هيراقليط .

اما الطريقة الفلسفية الاخرى فتقضي بالنظر الى جميع الاشياء والظاهرات بوصفها جامدة ، لا تتغير ولا تتحرك . وهذه الطريقة تسمى الطريقة **الميتافيزيائية** . وهكذا نرى ان الديالكتيك والميتافيزياء هما طريقتان مختلفتان ، بل متضادتان لمعرفة العالم . فاي من هاتين الطريقتين الفلسفيتين تعتبر اذن الطريقة الصحيحة ، العلمية ؟ لا شك في انها تلك الطريقة التي تتطلب النظر الى كل شيء في تطور ، في تغير ، اي الطريقة الديالكتيكية . وهذا ما يتفق والواقع نفسه ، وهذا ما يؤكده العلم

والتجربة البشرية . فالمعلوم ان الحياة لا تقف مكانها ، بل تتغير وتتطور . مثلا ، منذ امد ليس بالبعيد كان المستعمرون الانكليز والفرنسيون يسيطرون في افريقيا ، اما الآن فقد ظفرت دول افريقية كثيرة باستقلالها ومزقت قيود الاستعمار وهي تناضل في سبيل مستقبل سعيد لشعوبها . هذا هو التطور والتقدم في حياة الشعوب . كذلك تتطور ظاهرات الطبيعة . وهذا يعني ان الديالكتيك يبين بصورة صحيحة سبيل دراسة الظاهرات كافة في الطبيعة والمجتمع .

بيد انه ينبغي الاخذ بعين الاعتبار بان الديالكتيك لا يصبح علميا حقا الا حينما يكون في وحدة عضوية مع المادية . ان هذا التوحيد بين الديالكتيك والمادية قد تحقق في الفلسفة الماركسية ـ **المادية الديالكتيكية** .

٢ ـ ظهور المادية الديالكتيكية

ان فلسفة الماركسية ـ المادية الديالكتيكية ـ قد انشأها معلما الطبقة العاملة العظيمان كارل ماركس (١٨١٨ـ١٨٨٣) وفريدريك انجلس (١٨٢٠ ـ

١٨٩٥) وطورها بصورة خلاقة في الظروف الجديدة زعيـــم الشعب العامل كله فلاديمير ايليتش لينين (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤) . ان تاريخ البشرية لا يعرف اناسا كان لهم تأثير هائل سواء أعلى تطور الثقافة الروحية ام على مصائر البشرية بأسرهـــا كتأثير كارل ماركس وفريدريك انجلس وفلاديمير ايليتش لينين ـ هؤلاء عمالقة الفكر البشري والقضية الثورية . فانهم ، اذ انطلقوا بانظارهم الى المستقبل ، رأوا المصائر المقبلة للشعوب وبينوا سبل ووسائل بلوغ الحياة الحرة السعيدة على الارض .

اخذ مذهب ماركس وانجلس الفلسفي يتكون في اواسط القرن الماضي تحت تأثير حركة العمال المبتدئة في سبيل تحررهم الاقتصادي والسياسي .

في العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر جرت اولى نضالات البروليتاريا . ففي انكلترا اتسع نضـــال العمال الجماهيري في سبيل الحقوق السياسية ، هذا النضال الذي دخل في التاريخ تحت اسم الحركة الشارتية (الميثاقية) ؛ وفي فرنسا ثار عمال ليون ؛ وفي المانيا دخل عمالُ النسيج في سيليزيا حلبة النضال . ان هذه المعارك الطبقية الاولى بين العمل

والرأسمال قد دشنت بداية نضال الطبقة العاملة التحرري .

وهكذا نشأ مذهب ماركس وانجلس على اساس نضال البروليتاريا التحرري ضد الاستغلال والاضطهاد واصبح المعبر الواعي عن المصالح الجذرية للطبقة العاملة ، وغدا برنامج نضالها في سبيل الاشتراكية . لقد بيّن هذا المذهب لبروليتاريي جميع الاقطار السبيل الوحيد الامين للتحرر من العبودية الرأسمالية .

ان مذهب ماركس وانجلس لم يظهر على هامش الطريق الرئيسي لتطور الثقافة العالمية ، بل كان الوريث الشرعي لافضل ما انشأته البشرية التقدمية . فقد وجدت الفلسفة وتطورت قبل ماركس وانجلس . ومأثرتها الكبرى انها اعطت الناس فهما ماديا للطبيعة ، واعطتهم كذلك مذهب التطور (الديالكتيك) . وقد تجلت منجزات الفكر الفلسفي هذه اكثر ما تجلت في انهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر في الفلسفة الالمانية . ان اقرب اسلاف ماركس وانجلس في ميدان الفلسفة هما الفيلسوف المثالي الالماني المشهور جورج هيغل (١٧٧٠-١٨٣١)

والفيلسوف المادي الالماني البارز لودفيغ فورباخ (١٨٠٤–١٨٧٢) .

ان مذهب هيغل الفلسفي كان ذا قيمة كبرى لكونه احتوى على فكرة التطور – الديالكتيك . اما مذهب فورباخ الفلسفي فتضمن اسطع فهم مادي للطبيعة بالنسبة لذلك الوقت . وقد طرح لودفيغ فورباخ بقوة جديدة مسألة ضرورة النضال ضد المثالية .

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر ، تطورت العلوم الطبيعية تطورا سريعا بتأثير متطلبات الانتاج الرأسمالي . ففي الفيزياء ، مثلا ، سارت بنجاح الى الامام دراسة ظاهرات طبيعية مثل الحرارة والمغنطيس والكهرباء . وفي الكيمياء ، تم استقصاء خواص عناصر كيماوية كثيرة وتركيب جملة من المواد الكيماوية . وتحققت نجاحات كبرى في الجيولوجيا – العلم الذي يدرس نشوء وتركيب طبقات جوف الارض .

كل هذه النجاحات في علم الطبيعة هيأت وادت الى ثلاثة اكتشافات عظيمة .

اولا ، تم اكتشاف الخلية . فقد أثبت العلماء ان جميع اعضاء الحيوانات والنباتات تتركب من شتى

كان الديالكتيك ، كما سبق وقيل ، قد عرض بشكله الاكثر تطورا في مذهب هيغل الفلسفي . ولكن نقص ديالكتيك هيغل يكمن في انـــه كان يخضع كليـــا للمثالية . ولهذا السبب ، لم يكن الديالكتيك مطبقاً في مذهب هيغل الفلسفي الا ّ على تطور الفكرة ، على الوعي . فان هيغل يرى ان الفكرة ، الروح هي التي تتطور وتنتقل من حالة الى اخرى ؛ اما الطبيعة التي اعتبرها هيغل احدى المراحل في تطور الفكرة ، فلا تطور لها في الزمان ، اي ليس لها تاريخ خاص . كان لا ينبغي التغلب على النقص الجذري في ديالكتيك هيغل وحسب ، بل كان ينبغي كذلك المقدرة على ايجاد وحفظ كل ما هو ثمين وتقدمي فيه . ولقد حطم فورباخ نظام هيغل وطرح به جانبا بكل بساطة . وهكذا ، كما يقال، قـُذف الصحيح مع الخاطئ .

لقد احتاج الامر الى عبقرية ماركس من اجل العثور على النـواة العقلانيـــة لديالكتيك هيغل في خفايا مذهبه المثالي والابقاء على هذه النواة . ان هذه النواة العقلانية تكمن في التأكيد بان كل شيء في العالم يوجد في تغير وتطور ، وان التناقضات الداخلية هي مصدر هذا التطور . ولكن من اجل

فصل هذا المذهب التقدمي للتطور عن القشرة المثالية كان من الضروري صياغة ديالكتيك هيغل من جديد صياغة جذرية على اساس مادي واضفاء شكل علمي معاصر عليه . ولم يكن بالمستطاع عمل هذا الاّ استنادا على منجزات النشاط والعلم الثوريين .

ان تطبيق ماركس وانجلس للطريقة الديالكتيكية التي صاغاها ، في دراسة الطبيعة والحياة الاجتماعية قد مكنهما من انشاء مذهب فلسفي يجمع **المادية والديالكتيك في وحدة لا تنفصم عراها** . وهكذا نشأت **المادية الديالكتيكية** بوصفها نظرة ثورية جديدة الى العالم هي النظرة الوحيدة اليقينية والنظرة التي تستجيب كليا لمصالح واهداف نضال الشغيلة التحرري . ان المادية الديالكتيكية في وقتنا هذا سلاح فكري امين يساعد الناس في بناء الحياة الجديدة . فما هي المادية الديالكتيكية ؟ وماذا تعلّم ؟ اننا سنجد الجواب عن هذا السؤال في العرض التالي .

الفصل الثاني

المادة واشكال حركتها

ما هي المادة . ان المذهب الخاص بالمادة هو حجر الزاوية في المادية . فالحياة والتجربة اليومية يثبتان لنا أن العالم يوجد موضوعيا مستقلا عن الانسان ووعيه (ادراكه) واحساساته ورغباته . وهذا ما يؤكده كذلك العلم اذ برهن على ان الارض ظهرت لامد طويل قبل ظهور الانسان والكائنات الحية على العموم ، وهذا يعني انها وجدت مستقلة عنها . ويستفاد من معطيات العلم ان الارض موجودة منذ خمسة مليارات سنة ، اما الانسان فلم يظهر عليها إلاّ منذ حوالى مليون سنة . ان موضوعية العالم ، اي وجوده خارج وعينا ومستقلا عنه ، تعني انه مادي .

تحيط بنا كمية لا نهاية لها من الاشياء والظاهرات . الحجارة والاشجار والرمال والشمس والحيوانات والبحار والصحارى والنجوم والكواكب ،

وكثير كثير غيرها . وهذا كله نسميه بكلمة واحدة «المادة» . والكلمات من هذا النوع ، مثل كلمة «المادة» هنا تسمى مفاهيم .

ان بعض المفاهيم تشمل نطاقا واسعا من الاشياء والظاهرات ، والبعض الآخر نطاقا ضيقا . مثلا ، ان مفهوم «شيء» اوسع من مفهوم «مسكة» او «طاولة» .

هل توجد اوسع المفاهيم ؟ نعم ، توجد . فاذا كان ثمة مفهوم يشتمل على جميع الاشياء والظاهرات ابتداء من حُبيبات الرمل حتى العقل البشري ، فان هذا المفهوم يكون اوسع المفاهيم .

ان هذا المفهوم هو مفهوم «المادة» . ينجم من هذا ان «المادة» هي مفهوم كذلك مثلها مثل «الشيء» ، غير انه مفهوم واسع جدا – انه اوسع المفاهيم . وهذا المفهوم يتميز عن المفاهيم الاخرى العادية بكونه يعبر عن العلائم الجوهرية العامة لا لمجموعة ما من الاشياء وحسب ، وانما **لجميع** الاشياء والظاهرات في العالم – لكل ما يحيط بنا . واوسع المفاهيم كهذه تسمى كذلك المقولات الفلسفية .

ما هي اذن هذه الخواص الجوهرية العامة التي تلازم جميع الاشياء ؟ انها ، قبل كل شيء مادية وتوجد موضوعيا ، اي خارج وعي الانسان ومستقلة عنه .

وللاشياء خاصية اخرى هامة . مثلا عندما نغتسل بمياه دافئة نشعر بالدفء . وحينما ننظر في الغابة الى الاشجار نرى لون اوراق الشجر الاخضر . ينجم من هذا ان للاشياء التي توجد مستقلة عنا خاصية التأثير على اعضاء حواسنا وتستتبع الاحساسات المطابقة لذلك . وهذا يعني اننا نسمي مادة ما يحيط بنا ، كل ما يوجد موضوعيا ، اي كل العالم المادي الخارجي الذي يؤثر في اعضاء حواسنا ويسبب الاحساسات . ان فلاديمير ايليتش لينين في كتابه «المادية والمذهب النقدي التجريبي» يعرّف مفهوم المادة على الوجه التالي : «المادة هي مقولة فلسفية للدلالة على الواقع الموضوعي الذي اعطي للانسان في احساساته . . . المادة هي ما يؤثر على اعضاء حواسنا ويثير الاحساس ؛ المادة هي واقع موضوعي ، أعطي لنا في الاحساس ، وما الى ذلك» (لينين .

المؤلفات ، الطبعة الروسية الرابعة ، المجلد ١٤ ، ص‌ص ١١٧ و ١٣٣) .

يمكن القول بكل تأكيد انه مـــا من مفهوم فلسفي تعرض لهجمات عنيفة من جانب المثاليين كمفهوم المادة . فلغاية الآن والمثاليون يقومون بالممكن والمستحيل من اجل الحط من شأنه . انهم يلجأون الى شتى الخدع والحيل ويزورون العلم المعاصر محاولين البرهنة على انه لا وجود للمادة على الاطلاق ؛ انها ، كما ترون ، قد « تلاشت » انها « لا توجد » . ولكن هذا سخافة لان من شأنه ان يعني أن العالم قد « تلاشى » . يقينا ان المثاليين يحاولون ان يضفوا على حججهم طابعا مقنعا قدر الامكان . وبما انهم « يبنون » حججهم على بعض الاكتشافات في الفيزياء الذرية ، فاننا سننظر فيها بمزيد من التفصيل .

من اجل فهم العرض اللاحق ادناه ينبغي الاخذ بعين الاعتبار ان العلماء والفلاسفة في الماضي لم يفهموا بكلمة « مادة » مقولة فلسفية ، بل فهموا شكلا ما من اشكال المادة ، مثلا ، الذرات التي تتكون منها جميع الاجسام . كان علم القرنين السابع

عشر والثامن عشر يعتبر ان الذرات غير قابلة للانشطار ولا تتحطم وانها طوبات ابدية في بناية العالم ، ومنها بني العالم بأسره .

في نهاية القرن التاسع عشر ، أُعطي البرهان القاطع على انه من الضروري رفض الرأي القائل بعدم انقسام الذرة : فالذرة تنشطر . اننا لن نعرض باسهاب الاكتشافات العلمية في الفيزياء الذرية . ان ما يهمنا هنا هو التأكيد على شيء آخر : فعلى اساس هذه الاكتشافات خرج المثاليون باستنتاج مفاده ان المادية منيت بالفشل . انهم يحاكمون على الوجه التالي تقريبا : كانت الذرة غير القابلة للانشطار تعتبر اساس المادة ، فتبيَّن انها تنشطر وتتجزأ . وهذا يعني انه ينهار ذلك الاساس الذي قام عليه صرح المادية نفسه ونواة المادية ، الا وهي المادة . غير ان هذه المزاعم لا تقوم على اي اساس على الاطلاق .

ما الذي حدث ، على وجه الدقة ، في العلم في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ؟ لقد حصل الناس على معارف جديدة . فيما مضى لم يعرفوا ان الذرة تنشطر وان ثمة ألكترونات

وبروتونات ، ونواة ذرية ؛ اما الآن ، فقد عرفوا هذا . ان كل هذه المعطيات تشهد على انها قد تغيرت تصوراتنـــا عن **اللوحة الطبيعية للعالم** ، عن تركيب المادة .

لقد عرف العلم المعاصر الشيء الكثير الجديد عن تركيب المادة . ولئن كانت قد عُرفت في فجر الاكتشافات اثنتان او ثلاث جسيمات للمادة ، فانه قد تم الآن اكتشاف اكثر من ٣٠ من هذه الجسيمات . ولكن اهم ما اثبته العلم يكمن في ان جميع هذه الجسيمات توجد مستقلة عن وعينا . انها مادية بقدر ما هي عليه الذرة . ومن المستحيل ان يكون هناك حديث عن « زوالها » .

ان الاكتشافات العلمية تثبت بصورة قاطعة انه يستحيل الخلط بين المادية الميتافيزيائية والماديـة الديالكتيكية . فالمـــادة ، بنظر المادية الميتافيزيائية ، هي ذرات لا تتغير ولا تتحطم . اما الماديـة الديالكتيكية ، فتنطلق من انـه يستحيل اقتصار المادة لا على « آخر طوبة » – اي الذرة ، ولا على اي خاصية « ابدية » كانت بوجه عام . فالمادة لا تملك خاصية واحدة فقط ، بل عدداً

لا نهاية له من الخواص : ان اشياء العالم متنوعة ، وخواصها متنوعة كذلك .

لذا لا يجوز الخلط بين المذهب المتعلق بتركيب المادة والمفهوم الفلسفي للمادة بوصفها واقعا موضوعيا . من الطبيعي ان الاكتشافات العلمية تحل المسألة المتعلقة بتركيب المادة : أتتكون من ذرات والكترونات ام ان ثمة ايضا جسيمات اخرى ما . اما الفلسفة فتحل مسألة اخرى : هل يوجد العالم ، ومن ثم هذه الجسيمات ، بصورة موضوعية ، خارج الوعي البشري ؟ وبالتالي ، مهما كانت الجسيمات التي يكتشفها العلم جديدة (وهو يكتشفها على الدوام) ، فان هذا لا يمكنه ان يكون دحضا للمادية ، ذلك لان هذه الجسيمات نفسها مادية ، ولانها توجد ايضا موضوعيا ، بصورة مستقلة عن الانسان والبشرية .

وكيفما تغيرت تصوراتنا عن لوحة العالم ، فانها لا يمكنها ان تشهد على «زوال المادة» . ان المادة بوصفها واقعا موضوعيا تحصل على اثبات جديد في اكتشافات العلم . ولا تتغير إلا تصوراتنا عن بناء وتركيب العالم ولوحته العلمية .

ولكن الموضوعة القائلة بسرمدية المادة هي بالذات التي تثير الاسئلة الكثيرة . فالانسان يرى مدى دهره ان لكل شيء بداية ونهاية . وان هذا الشيء كان قد ظهر في وقت ما . وهكذا يطرح السؤال: من الذي اوجد المادة اذن ؟ العلم يجيب : لقد وجدت دائما ، منذ الازل .

وهذا ما يثبته على الاقل قانون بقاء المادة .

لنبدأ من مثال عادي . لو رمينا قطعة خشب في النار بقي منها قليل من الرماد فقط . اما الخشبة فتبدو وكأنها تلاشت ، احترقت . ولكن من غير الصعب ان يلاحظ المرء بان الخشبة بعد احتراقها لم تزل دون ان تترك اثرا ، بل تحولت الى مواد اخرى تختلف عن قطعة الخشب المحروقة .

لقد اعار العالم الروسي العظيم ميخائيل فاسيلييفيتش لومونوسوف (١٧١١-١٧٦٥) اهتمامه لمثل هذه الوقائع . وخلص الى استنتاج مفاده انه ما من جسم او عنصر في الطبيعة يمكنه ان يزول دون اثر ، او ان ينشأ ثانية من لا شيء . وصاغ لومونوسوف افكاره هذه في القانون المشهور ، قانون بقاء الاشياء الذي يسمونه ايضا قانون بقاء

المادة . ينجم من هذا القانون انه ما من شيء في الطبيعة ينشأ من لا شيء ، ولا يزول ابدا دون اثر ، بل يتحول فقط الى اشكال اخرى من المادة .

ينجم عن هذا القانون البالغ الاهمية ان الاسطورة القائلة بان العالم خُلق من لا شيء هي اسطورة باطلة على الاطلاق . فلو افترضنا انه كان زمن لم يكن فيه شيء في العالم ، اي لم تكن المادة ، اذن لاستحال ان تنشأ . ولكن بما ان المادة موجودة ، فان هذا يعني انها لم تنشأ ابدا ، انها قد وجدت دائما وستوجد ابدا .

عدم انفصال المادة عن الحركة

اذا كان الشيء في مكان معين ، فانه لا يتحرك . مثلا ، ان الحجر لا يغير وضعه طالما لم يحركه احد ما من مكانه . ولكن لو امعنا النظر في الحجر الساكن لوجدنا مع ذلك ان ثمة حركة فيه : ففيه تتنقل بلا انقطاع الذرات والجزيئات والالكترونات التي توجد ، كما هو معلوم ، في كل جسم ، وتجري عملية الهدم تحت تأثير الرطوبة والشمس والريح .

والبيت ، مثلا ، لا يمكث دون حركة ايضا ، فهو يدور سوية مع الارض حول الشمس . اننا نجلس بهدوء ولا ننتقل الى اي مكان كان ، ولكن الدم يدور فينا وتحدث في الجسم تغيرات معقدة : فالخلايا الجديدة تنشأ والقديمة تضمحل وتفنى . وهذه حركة ايضا .

لنأخذ الحرارة ، مثلا . انها تبدو نتيجة حركة عدد هائل من الجزيئات ، مثلا جزيئات الماء . فبسبب تنقل الجزيئات تسخن المياه . ولكن هذه الحركة ليست حركة ميكانيكية ، بل هي شيء جديد اكثر تعقيدا . والتيار الكهربائي هو حركة الالكترونات . اما التفاعل الكيميائي فهو حركة ، تجمع الايونات ، انه عملية اكثر تعقيدا من سابقتها . والعضوية الحية كذلك توجد في حركة دائمة . وفي المجتمع البشري تجري تغيرات دائمة : تتبدل النظم الاجتماعية ، ويتغير الناس انفسهم وسيماؤهم الاخلاقية وفهمهم للاحداث الدائرة ، وما الى ذلك .

ما هو اذن الاستنتاج الذي ينبغي استخلاصه مما قيل ؟ هو انه توجد في العالم اشكال متنوعة للحركة . وهي : اولا ، تنقل جسيمات المادة او

الاجسام ، اي الشكل الميكانيكي للحركة . ثانيا ، العمليات الحرارية والكهربائية ، اي الشكل الفيزيائي للحركة . ثالثا ، التفاعل الكيميائي ، اتحاد او انفصال الايونـــات ، وهذا هو الشكل الكيميائي للحركة . رابعا ، التغيرات التي تحدث في العضويات الحية ، وهو الشكل البيولوجي للحركة . خامسا ، الشكل الاجتماعي للحركة ، اي التغيرات التي تحدث في الحياة الاجتماعية .

ان الحركة ، كما بين انجلس ، تشتمل على كل التغيرات والعمليات الدائرة في الكون ، ابتداء من التنقل البسيط حتى التفكير . ينجم من هذا ان الحركة هي جميع التغيرات التي تجري في الاشياء والظاهرات ، اي في العالم . انها تغير المادة على العموم .

هل يمكن للمادة ان تكون في حالة تنعدم فيها اية تغيرات ؟ طبعا ، لا . فحتى في ذلك الزمن السحيق عندما لم يكن في العالم بعد وجود لا للناس ولا للحيوانات ولا للخلية الحية ، حتى في ذلك الزمن ايضا كانت التغيرات تحدث في المادة . والواقع ان الاجسام تتكون من الذرات والجزيئات ، وهذه

تتحرك على الدوام . وهذا يعني انه لم يكن ابدا ولا يمكن ان يكون اي جسم جامد عديم الحركة بصورة مطلقة . وعليه ، اذا كانت الذرات والجزيئات والالكترونات موجودة ، فان الامر لم يخل من التفاعل الكيميائي . ينجم عن هذا ان الشكل الكيميائي لحركة المادة كان موجودا ايضا .

يفهم من هذا انه **لم تكن ابدا حالة كانت فيها المادة بلا حركة** . لذا يقولون ان **الحركة هي شكل بقاء المادة ، شكل وجود المادة** . ان الحركة خاصية ملازمة للمادة . ولا وجود للمادة بلا حركة ، وهي لا توجد إلا في الحركة .

هل يعني ما ذُكر أن المادية الديالكتيكية تنفي وجود السكون ؟ كلا . ان السكون موجود في الطبيعة ، ولكنه نسبي . وهذا يعني انه ما من ظاهرة يمكنها ان تكون خالية من الحركة وان كل شيء ساكن فيها .

اذا كان الجسم ساكنا فان ذلك بالنسبة لشيء ما آخر . مثلا ، اثناء حركة القطار نكون ساكنين بالنسبة لهذا القطار ، ولكننا نوجد في حالة الحركة سوية مع القطار نفسه .

ان الفهم الديالكتيكي للسكون يختلف جذريا عن الفهم الميتافيزيائي له . ان الميتافيزيائيين يفهمون السكون على انه انعدام اية حركة كانت . هذا هو الفهم الذي تعارضه المادية الديالكتيكية .

ان الذي يتسم بالاهمية الحاسمة في الطبيعة ليس السكون ، وان كان يوجد كسكون انسبي ، بل الحركة ، التطور ، التغير . واننا قد رأينا بان المادة ، الطبيعة ليست بحاجة على الاطلاق الى «محرك» ، فالحركة الداخلية تلازمها بوصفها خاصية جذرية لا تنفصم عنها . ولا معنى لسؤال المرء : من اين ظهر ما يوجد منذ الازل .

الزمن والمكان
هما شكلا وجود المادة

ان لجميع الاشياء امتدادا ومقاييس معينة وحجما ، اي ثلاثة ابعاد : العرض والطول والارتفاع ، وهي تشغل مكانا معينا . انها ، عدا ذلك ، توجد على انحو معين بعضها من بعض : ابعد ام اقرب ، اعلى ام ادنى ، الى اليمين او الى اليسار . وهذا يعني انها جميعها توجد في المكان ويستحيل ان

توجد على خلاف ذلك . ولكننا نعرف الآن ان جميع اشياء العالم تؤلف ما نسميه مادة . ينجم عن هذا ان المادة لا تستطيع ان توجد في غير المكان . هذا هو سبب تعريف المكان بوصفه شكلا لوجود المادة .

وبعد . ان كل الظاهرات في العالم ، كما سبق واشرنا ، توجد في حالة سرمدية من التغير والحركة والتطور . وفضلا عن ذلك ، تتناوب كل الظاهرات في العالم بصورة معينة من التتالي : يأتي النهار بعد الليل ، وبعد الرأسمالية تأتي الاشتراكية . ان احدى الحوادث تجري بصورة ابكر واخرى بصورة متأخرة . كما ان لجميعها امتدادا معينا . ان هذا التغير والتطور ، ان تناوب الاحداث وتتاليها وامتدادها ، ان كل هذا يستحيل ان يجري خارج نطاق الزمان .

وعليه ، فان كل ما يتم في العالم يجري في الزمان . ولذا كان الزمان ايضا شكلاً لوجود المادة . كتب لينين في مؤلفه الذي سبق وذكرناه «المادية والمذهب النقدي التجريبي» يقول : «ما من شيء في العالم غير المادة المتحركة ، والمادة المتحركة لا

تستطيع الحركة إلاّ في المكان والزمان» (لينين . المؤلفات ، الطبعة الروسية الرابعة ، المجلد ١٤ ، ص ١٦٢) .

المكان هو شكل وجود المادة ، الذي يحدد موقع وجود الجسم المادي وابعاده وحجمه . اما الزمان فيحدد جانبا آخر من وجود وتطور المادة : تتالي ومدة تلك التغيرات التي تطرأ على الاجسام المادية . يفهم من هنا ان الخواص لدى المكان والزمان تختلف ايضا ، انها ليست متشابهة . ما هي اذن الخواص الملازمة للمكان والزمان ؟

للمكان ثلاثة ابعاد . وهذا يعني ان الطول والعرض والارتفاع تعطي وصفا تاما للمكان . ان الابعاد الثلاثة هي اهم خاصية للمكان .

كل منا يعلم ان تغير الظاهرات في الزمان يجري في اتجاه واحد فقط : من الماضي الى الحاضر فالمستقبل . ان مرور الزمان على عكس ذلك لا يحدث . ولكن في الحكايات والقصص الخيالية فقط استطاع الناس ايجاد «آلة للزمن» تتحرك عقاربها «على العكس» . ان من المستحيل تكرار جميع الدرجات

في الاتجـــاه العكسي . وهذا يعني ان اهم خاصـــة للزمان هي عدم رجوعه الى الوراء .

اذا كان الشيء يشغل موقعا ما في المكان ، فان ذلك ممكن إما اليوم واما في الامس وباختصار «في وقت ما» . أين ؟ متى ؟ انهما سؤالان مترابطان بصورة وثقى ، ويصفان زمن الحادثة وموقعها في المكان .

وعليه ، فان الزمان والمكان مرتبطان ارتباطا وثيقا . انه يستحيل فصل احدهما عن الآخر . فالمكان لا وجود له بدون الزمان كما ان الزمان لا يوجد بدون المكان . وبما ان المادة توجد في المكان والزمان فانه يستحيل فصل المكان والزمان احدهما عن الآخر وليس هذا وحسب ، بل يستحيل كذلك فصلهما عن المادة .

قبل بداية القرن العشرين ، كان يسود في العلم رأي العالم الطبيعي العظيم اسحق نيوتون (١٦٤٢–١٧٢٧) القائل بان المكان والزمـــان يوجدان منفصلين عن المادة وبصورة مستقلة عن الاشياء المادية . والمكان هو شيء ما يشبه صندوقا هائلاً او غرفة لا نهاية لها بدون جدران وسقف

وارضية حيث يمكن وضع الاشياء واخذها منها . وكأنما العالم المحيط «موضوع» في هذا «الصندوق» او «الغرفة» . من هنا استخلص نيوتون الاستنتاج التالي : المكان مطلق ، اي انه مستقل عن المادة . وقد نظر نيوتون الى الزمان ايضا نظرته الى شيء ما مطلق غير مرتبط بالمادة ومستقل عنها . كان هذا رأي المادية الميتافيزيائية .

ولكن الفيزيائي العظيم في القرن العشرين البرت اينشتاين (١٨٧٩–١٩٥٥) الذي ابتكر النظرية النسبية عالج مسألة المكان والزمان بصورة تختلف تماما . فقد اثبت علميا الفكرة التي عبر عنها مؤسسا المادية الديالكتيكية – ماركس وانجلس والقائلة بان المكان والزمان هما في ترابط فيما بينهما ومع المادة على حد سواء ويتوقفان على خواصها .

قد يبدو ان الوقت يمر بنفس الوتيرة على الارض وعلى متن صاروخ هائل السرعة . غير ان الامر يختلف تماما . فاذا كان الصاروخ يسير بسرعة قريبة من سرعة الضوء فان الوقت يمر فيه بصورة ابطأ بكثير مما على الارض . تصوروا اننا قمنا

برحلة في مثل هذا الصاروخ ، وطرنا مثلا لمدة ثلاث سنين . ولكن الدهشة ستأخذنا عندما نعود الى الارض : لقد مر في الارض اكثر من ٣٦٠ سنة ! انه من الصعب تصور هذا ، بيد ان الامر هو كذلك . وهذا يعني ان للارض وقتها وللصاروخ السائر بسرعة قريبة من سرعة الضوء وقته . ان الوقت نسبي ويتوقف على سرعة الحركة . فكلما أسرع سير جسم ما في المكان ، تباطأ مرور الوقت بالنسبة له .

غير ان المكان نفسه هو نسبي كذلك . لنتصور ان قطارا يمر بجانب رصيف المحطة بسرعة قريبة من سرعة الضوء (تبلغ سرعة الضوء ٣٠٠ الف كيلومتر في الثانية) .

ان ركاب القطار سيجدون ان الرصيف قد تقلص ، اما الناس الذين يقفون على الرصيف فسيجدون ، على العكس ، ان الذي تقلص هو القطار المنطلق بسرعة عاصفة . ان هذا ليس بخداع للنظر بتاتا وانما حقيقة موضوعية . وعلى هذا النحو ، كان المكان ايضا نسبيا .

يحاول المثاليون المعاصرون تشويه اكتشاف العلم هذا . انهم يقولون : بما ان المكان والزمان نسبيان

فانهما لا يوجدان موضوعيا ، بل يوجدان في وعي الانسان فقط . ولكن هذا غير صحيح . فالاكتشافات الجديدة لم تدحض الفهم المادي للمكان والزمان . ان التي دُحضت هي فقط التصورات الميتافيزيائية السابقة عن المكان والزمان . فان لكل نظام من الاحداثيات ، كما يقول الفيزيائيون ، زمنه وهذا الزمن نسبي . ولكنه يوجد موضوعيا . والمكان ايضا يوجد موضوعيا .

ولئن كان الزمان والمكان موضوعيين وليسا رهنا بالانسان ، أفلا يكون الانسان عاجزا امام مرور الوقت الذي لا يرحم ؟

ان الانسان عاجز عن ايقاف الزمن ولكنه غير عاجز امام مروره الموضوعي . انه ، على العكس ، يحوز كل ما هو ضروري لامتلاك ناصيته واخضاعه . فكلما عرفنا كيف نستخدم الزمان على نحو افضل ، كان عمل الزمان في صالحنا انجح . وعلى سبيل المثال نقول ان في بلدان الاشتراكية وتائر عالية لتطور الانتاج . وهذا ما يمكنها من كسب الوقت في المباراة الاقتصادية مع البلدان الرأسمالية المتطورة .

مثال آخر . ان شعب جمهورية مالي يحقق مشروع خمس سنوات لتنمية الاقتصاد الوطني . انه يسعى الى استخدام هذه السنوات الخمس من اجل تعزيز استقلال البلاد ورفع مستوى حياة الشعب . وهذا يعني ان شعب مالي وحكومتها يسعيان كذلك الى كسب الوقت .

لانهائية العالم ووحدته

ان المكان بلا انهاية ، والزمان سرمدي . لذا ، كان العالم ايضا ينبسط في جميع الجهات بلا نهاية — الى اعلى وادنى ، الى اليمين والى اليسار . وفي الزمان ايضا ، لم تكن له بداية ولن تكون له نهاية .

لقد اثبت العلم كليا المذهب المادي القائل بلانهائية العالم وبلانهائية المكان . ان كوكبنا — الارض — ليس سوى حبة رمل صغيرة في المحيط الكوني الذي لا شواطئ له . والوحدة القياسية التي تؤخذ لقياس الكون ليست الكيلومتر وانما ما يسمى بالسنة الضوئية ، اي المسافة التي يجتازها شعاع الضوء في غضون سنة بسرعة حركة الضوء وهي

٣٠٠ الف كيلومتـــر في الثانيـــة . والآن يدرس علماء الفلك النجوم التي تبعد عنا مسافة مليار سنة ضوئية واكثر . وهذا يعني ان الصاروخ الذي يسير بسرعة ٥٠ الف كيلومتر في الساعة لا يصل الى هناك إلا بعد آلاف وآلاف المليارات من السنين ! انها مسافة يصعب تصورها . ولكن العلم يقول ان هذا ليس بالحد الاخير .

انظروا في المساء الى السماء ، انها مرصعة بالنجوم . ان مجمل نظام النجوم هذا الذي تشكل الشمس جزءاً منه يحمل اسم المجرة . وعدد نجوم هذه المجــرة حوالى ١٥٠ مليار نجمة . وثمـــة ملايين عديدة مثل هذه المجرات . لقد تسنى للعلماء دراسة كل هذا بواسطة اقوى وسائل الرصد المعاصرة — اكبر التيليسكوبات (المراقب) اللاسلكية والتيليسكوبات البصرية . غير ان هذا ايضا ليس «نهاية العالم» .

وهذا يعني ان الكون ليس له حد او نهاية او تخوم . ولذا لا تقوم على اي اساس محـــاولات المثاليين الرامية للبرهنة على انه كانت للعالم بداية وستكون له نهاية ايضا .

لو افترضنا ان الكون محدود في المكان فلا بد من السؤال : ما الذي يوجد اذن خارج حدود الكون ؟ أيوجد بوجه عام عالم آخر عدا العالم المادي ؟

لقد اثبت العلم اثباتا قاطعا بانه لا وجود لعالم غير مادي ، « لعالم الغيب » ، « للعالم الآخر » ، ومن غير الممكن ان يكون له وجود . وفعلاً ، طالما ليس هناك اي شيء غير المادة فان الممكن وجوده هو عالم واحد فقط ، العالم المادي . لذا تعلمنا الفلسفة الماركسية بان العالم واحد . ولا يجوز فهم ذلك على انه لا يوجد غير العالم الذي نعيش فيه . لقد كان العالم الايطالي العظيم جوردانو برونو (١٥٤٨ـ١٦٠٠) قد برهن بان هناك كثرة من العوالم . ولكنها جميعها مادية . وهي في هذا المعنى تؤلف كلها عالما ماديا واحدا . ان وحدة العالم تعني ، بالاضافة الى هذا ، ان جميع الاشياء والظاهرات والعمليات مترابطة فيما بينها ارتباطا متبادلا على نحو لا تمثل فيه كومة من الاشياء المنعزلة ، بل هي بمثابة كل واحد .

فما يبرهن اذن على وحدة العالم ؟ يبرهن على ذلك تطور الفلسفـــة وعلوم الطبيعة تطورا طويلا

وصعبا ، ــ هكذا يجيب انجلس . في القِدم ، عندما لم يكن لدى الناس فهم علمي عن الشمس والكواكب والنجوم ، كانوا يعتبرون ان «عالم السماء» (النجوم ، الشمس ، القمر) يختلف تمامـــا عن عالم الارض . هكذا نشأ التصور عن العالميـْن . ولكن تدريجيا وبمقدار تطور العلم ، اخذ ستار السر ينحسر ، وتبيـّن ان «السماء» مادية ، في اساسها ، كالعالم الذي نعيش فيه .

ان اول ضربة موجهة الى التصور الخاطئ عن الكون قد انزلها العالم البولوني العظيم نيقولاي كوبيرنيك (١٤٧٣ــ١٥٤٣) . فقد عبر عن فكرة تقول بان الارض ليست مركز الكون على الاطلاق ، بل هي كوكب عادي في نظامنا الشمسي . وهكذا ثبت انه لا يجوز معارضة «السماء» بالارض ، وانه لا وجود في السماء لشيء فوق الطبيعة .

وفي القرن الثامن عشر ، برهن العالم الانجليزي العظيم اسحق نيوتون على ان نفس قوانين الميكانيك التي بموجبها تدور ارضنا حول الشمس هي التي ترغم القمر على الدوران حول الارض ، والكواكب الاخرى حول الشمس .

ان الاجرام السماوية تتكون من نفس العناصر التي تتكون منها الارض . فقد ثبتت الوحدة التامـــة ، اي وحدة العناصر الاساسية الموجودة على الارض والاجرام الكونية الاخرى ايضا . وهذا ما يتضح وإن من نتائج تحليل تلك الاجسام التي تسقط على الارض من اعماق الفضـــاء الكوني ، مثلا ، النيازك والشهب . ان الجزء الرئيسي التي تتكون منه هو الحديد ، اي العنصر الواسع الانتشار على الارض . ان هذا يثبت بصورة قاطعة انه ما من شيء غير مادي بتاتا في «ممثلة السماء» هذه .

ان هذا يعني أنه مـــا من ظاهرة واحدة في العالم ليست نتيجة لحركة المادة ، لتطورها . فالمادة تشتمل على كل شيء وتبسط مفعولها الى كل مكان ، وليس هناك شيء على الاطلاق غير المادة المتحركة ، المتطورة وما يتولد عنها ، وعدا هذا لا يوجد ولا يمكن أن يوجد شيء . وهذا يعني ان هناك عالماً واحداً فقط هو العالم المادي ، وان وحدة العالم تكمن في ماديته .

لننظر الآن ما هي علاقة العالم المادي بالوعي .

الفصل الثالث

المادة والوعي

الوعي هو خاصية مادة عالية التنظيم

منذ عهد ما قبل التاريخ والناس يفكرون لماذا يكف الانسان بعد موته عن التفكير والحركة والكلام ؟

كم من القرون حاول الناس حدس العلاقة المتبادلة بين الجسد وما يسموانه بالروح ، او بالاحرى ، وعي (ادراك) الانسان .غير ان حل هذه المسألة كان صعبا لاقصى حد . اذ كيف يدرس ما لا يُرى ولا يُسمع ولا لون له ؟ والحال ان وعينا لعلى هذا النحو بالذات . ما من احد يعرف فكري طالما لم اتحدث عنه . اذن ما هو الفكر ، التفكير ؟ لقد استغل المثاليون هذه الاسئلة لقرون عديدة ولا يزالون يستغلونها .

يقول هؤلاء المثاليون ان مصدر الحياة والفكر هو النفس ، المبدأ الروحي .ومن المستحيل ان يوجد الجسد بدون روح ، انه ميت .

اما الروح فيمكنها ، على ما يزعم ، ان تستغني تماما عن الجسد . انها تسكن فيه عند الولادة وتغادره بعد الموت .

ولكـــن هل هذا صحيح ؟ دعنـــا ننظـــر في الامـــر .

الوعي انما هو الافكار والاحساسات والتصورات والارادة . والانسان بالدرجة الاولى هو الذي يتصف بهـــا . فاذا لم يكن هنـــاك من يحس ، فلا وجود للاحساسات ، واذا لم يكن هناك من يرغب ، اي الانسان ، فان ذلك يعني انه لا وجود للرغبات . ولا وجود للارادة ان لم يكن ثمة من يجب عليه ان يبدي هذه الارادة .

صحيح ان بعض اجنّـة الوعي تلازم الحيوانات . مثلا ، تحسس اللون والرائحة ، وشيء من الفهم . ولكن حتى هذه الاجنة من الوعي لم تظهر إلاّ لوقت ليس بالبعيد نسبيا .

ينجم مما قيل ان الطبيعة وجدت ليس فقط قبل الناس ، بل ايضا قبل الكائنات الحية على العموم ، وانها بالتالي مستقلة عن الوعي . انها اولية ، ولم يكن بمستطاع الوعي ان يوجد قبل الطبيعة ، فهو ثانوي .

لقد لوحظ منذ امد بعيد انه يكفي في بعض الاحيان ان تصاب اليد بجرح شديد حتى يغمى على المرء : فيفقد الرشد ، الوعي . وقد اثبت العلم ان الاغمـــاء – فقدان الوعي – يحدث نتيجة لضعف الدم في الدماغ او انتيجة لمرض حاد في القلب والاوعية الدموية ، او على أثر الرضوض المؤلمة وفقدان الدم . وهذا يعني ان الوعي يعتمد على العمليات المادية الجارية في الجسد ، في الدماغ وفي الاعصاب . ان تدمير الجسد يؤدي الى تدمير الوعي .

واليكم مثالا آخر . كلنـــا يعلم انه اذا كان المرء يشعر بالتعب وبعدم الارتياح ، لا يكون فكره واضحا الوضوح الكافي . وعلى العكس ، يكفي ان يأخذ المرء قسطا من الراحة وان يقوم بالرياضة البدنية او ان يغتسل حتى يتحسن شعوره ويتضح تفكيره .

وهكذا نصل ثانية الى الاستنتاج القائل بانه لا وجود للوعي ولا يمكن له ان يوجد بدون مادة . ولكن هل كل مادة تفكر ؟ يكفي القاء نظرة على العالم المحيط للاجابة : كلا ، ليست كل مادة . فالحجر مثلا ، لا يفكر وكذلك ايـة طبيعة غير حية بوجه عام . ولا وجود لعلائم الوعي ايضا عند العديد من العضويات الحية . اذن متى نشأ الوعي ؟

لقد اثبت علم الطبيعة المعاصر ان الطبيعة الحية قد تكوانت من الطبيعة غير الحية . ان هذا الاستنتاج على جانب كبير من الاهمية . فقد زعم المثاليون ان الطبيعة الحية لا يجمعها اي جامع بالطبيعة غير الحية . انهم حاكموا قائلين بان الاشياء الحية وغير الحية تختلف اختلافا حادا بعضها عن بعض . فالكائنات الحية ، بخلاف الاشياء غير الحية ، تتحرك وتتكاثر وتنمو . ان الفرق هائل في الواقع . ولكنهم كانوا عاجزين في ذلك الوقت عن فهم الشيء المشترك بينهما . لذا ولد الرأي الزاعم بان في العضوية الحية «قوة حياتية» خاصة ، تجعلها تختلف تمام الاختلاف عن الطبيعة غير الحية . فهل صحيح هذا ؟

ان العضوية الحية تختلف بالطبع عن الطبيعة غير الحية . ولكنها في الوقت نفسه مرتبطة بها ارتباطا وثيقا . مثلا تتكون العضوية الحية من عناصر مثل الكربون والهيدروجين والاوكسجين والحديد والكبريت والفوسفور وغيرها . وهذه العناصر انفسها غالبا ما تصادف في الطبيعة غير الحية ايضا . كذلك ليس هناك في العضوية الحية عنصر واحد غير موجود في الطبيعة الميتة ، غير الحية . ان كل هذا يثبت ان صلتهما احداها بالاخرى جلية . وقد برهن العلم بعد تحليل مثل هذه الحقائق على ان المادة الحية نشأت من المادة غير الحية .

بيد ان نشوء الحياة على الارض ، نشوء الخلية الاولى لم يعن بعد ظهور الوعي . اذ لم يظهر مع الحياة إلا الاجنة الاولى للوعي .

ان الوعي مرتبط بنشاط نصفي كرة الدماغ الكبيرين . وقسما الدماغ هذان هما نتيجة لتطور تدريجي دام قرونا وقرونا وتطور في مجراه الجهاز العصبي وتعقد نشاطه . كذلك تطور وتعقد سلوك الحيوانات الى ان ظهر الدماغ البشري وظهر معه الوعي البشري ايضا .

وبقشرة نصفي كرة الدماغ الكبيرين بالذات ترتبط المظاهر العليا للنشاط العصبي . ويسهل الاقتناع بهذا اذا قارنا تطور الجهاز العصبي بكيفية تعقد سلوك الحيوانات طبقا له . مثلا ، نحن لا نصادف عند الاسماك التي تنعدم لديها قشرة الدماغ إلا ابسط السلوك . اما عند الطيور ، فان هذا السلوك اكثر تعقيدا بكثير ، ذلك لانه لديها عناصر القشرة . وعند الكلاب التي قشرة دماغها متطورة اكثر بكثير مما عند الطيور نجد هذا السلوك اكثر تعقيدا . اما عند القرود الشبيهة بالانسان ، فان اي حركة ارادية تبدو خاضعة لقشرة نصفي الكرة الكبيرين . ولكنه ، مع ذلك ، لا يجوز الحديث عن تفكير الحيوانات بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة . فالتفكير هو خاصية الانسان المرتبطة بنشوء الشكل الاعلى للمادة في سياق عملية التطور التدريجي ، وهذا الشكل الاعلى هو الدماغ البشري . **ان الوعي ليس نتاج اية مادة كانت ، بل هو نتاج مادة عالية التنظيم ـ انه نتاج نشاط الدماغ . الوعي هو وظيفة الدماغ** . وليس بمستطاعه الوجود بدون الدماغ .

وكون الوعي يتوقف على الدماغ بالذات هو

امر يثبته واقع انه من الممكن احياء الانسان اذا كان الموت قد حصل قبل برهة قصيرة من الوقت . اما اذا مر وقت طويل ، فان عمليات تحصل في الدماغ تؤدي الى تدميره النهائي .

ويمكن مع ذلك اعادة عمل القلب ، ولكن اعادة عمل الدماغ تستحيل : ففيه تجري عمليات تسمى بالعمليات التي لا رجعة لها . ولذا يُفقد الوعي بلا رجعة وذلك بالضبط لأن الدماغ قد كف عن العمل الى الابد .

اذن ما هو الوعي ؟

لنأخذ اية فكرة ، اي قول ، مثلا : «انني ارى هذا الكتاب» ، «هذا البيت مرتفع» . من المفهوم تماما ان الذي يوجد في رأسنا ليس الكتاب وانما الفكرة عنه ، ليس البيت نفسه ، بل الفكرة عن البيت . وبكلمات اخرى نقول ان ما يوجد في رأسنا هو صور الاشياء والظاهرات . ان كل فكرة تتكون من مفاهيم . مثلا ، لقد عبر عن الفكرة الواردة في عبارة «الاوراق خضراء» بمفهومين – بكلمتين هما «الاوراق» و «خضراء» . من اين تؤخذ هذه المفاهيم ؟ من الحياة ، من الواقع . ان الاشياء

موجودة موضوعيا وعلى اساسها نؤلف المفاهيم عنها . في البدء يوجد الكتاب ، وبعد ذلك مفهومي عنه . وعليه تكون المفاهيم ثانوية . قبل كل شيء الواقع ، وبعد ذلك الانعكاس ، الفكرة عنه . لهذا السبب سمى لينين التفكير بأنه نسخ ، انعكاس للواقع . ففي التفكير يعاد انتاج الواقع ويجري رسمه وتصويره .

ينبغي الأخذ بعين الاعتبار ان خصوم المادية يزعمون ، بغية الحط من قدرها ، ان المادية تجعل المادة والوعي شيئا واحدا ، وتعتبر الشيء النفسي كذلك ماديا . ولكنهم «ينسون» ان يبينوا عن اية مادية بالضبط يدور الحديث . ان المادية الديالكتيكية ، مثلا ، لا يجمعها جامع ابدا بالزعم القائل بان النفسية مادة . وفضلا عن ذلك تفضح المادية الديالكتيكية من يسمون بالماديين المبتذلين ، وذلك بالضبط لانهم يجعلون الفكرة والمادة شيئا واحدا . انهم يعترفون كذلك بثانوية الوعي ولكنهم لا يستطيعون ان يفسروا بصورة صحيحة اهميته الحقيقية . ويزعم الماديون المبتذلون ان الدماغ يفرز الفكر تقريبا كما يفرز الكبد الصفراء . ولقد اطلق عليهم هذا الاسم بسبب انهم يفهمون التفكير بصورة فظة ، مبتذلة ، مبسطة .

لقد وجه لينين نقدا لاذعا للماديين المبتذلين بسبب خلطهم الوعي مع المادة . وقد بين ان الوعي غير مادي . ان الوعي نسخة ، صورة للواقع . بيد ان الدماغ يعكس ، يصور الواقع لا كما تفعل ذلك آلة التصوير العادية . ففي الرأس البشري يتحول الواقع بصورة مناسبة بمعنى ان ما يوجد فيه ليس الاشياء والمواد نفسها وانما صورها المثالية ، الفكرية .

وعليه ، يكون وعي الانسان خاصية مادة عالية التنظيم هي الدماغ ، بان تعكس الواقع المادي ، اي بان تنسخه .

التفكير واللغة

كثيرا ما يدهشنا سلوك القرد . مثلا ، يضع الانسان موزا امام القرد . من الصعب تناوله : فامام القرد نار . ولكنهم «علموا» القرد بانه من الممكن نشل الماء من البرميل القائم على مقربة واطفاء النار وتناول الموز . وبهذه الطريقة يصل القرد الى الموز . وفيما بعد وضعوا القرد في ظروف جديدة : هنالك عوامة في النهر وضع عليها الموز

وراء النار ، وفي مكان بعيد نسبيا وضع برميل الماء . ان المهمة هي نفسها : يجب اطفاء النار وتناول الموز . ان بامكان القرد اخذ الماء من جانبه لان الماء بكثرة حول العوامة . ولكنه لا يقوم بذلك ، بل يصل بصعوبة الى البرميل لكي يأخذ «هذه» المياه بالذات .

ان هذا المثال يبين بانه ليس لدى القرد مفهوم عن «الماء» ولا علم له بخواصه العامة . فتفكيره مرتبط مباشرة بالاشياء المحيطة به . ناهيك بان تفكيره غير ممكن بدون الصلة المباشرة بهذه الاشياء . وهذا يعني ان القرد لا «يفكر» إلا عندما تكون الاشياء امامه . ولكن اذا لم تكن هذه الاشياء امامه فانه لا يستطيع «التفكير» .

اما التفكير عند الانسان فيختلف كيفيا . انه يتعرف على الاشياء في مجرى النشاط الانتاجي ، العملي ، العلمي ويدرس خواصها . فهو يلاحظ ان الماء في البرميل وفي النهر وفي البئر وفي البحر وما الى ذلك يمتلك خواص مشتركة ، مثلا ، خاصية اطفاء النار . وهكذا يكوّن الانسان مفهوم «الماء» . انه ليس الماء في البرميل او في البحر او النهر ،

بل هو «الماء على العموم» . وهذا مفهوم عام . والانسان هنا لا يعير انتباهه الى الاشكال المعينة ، الى الاشياء الملموسة ، انما يميز خواصها العامة .

عندما نتحدث عن مفهوم «الشجرة» ، «الشجرة بوجه عام» ، فاننا نعني تلك الخواص العامة التي تتصف بها كل شجرة وليس فقط تلك الشجرة التي تنمو جنب نافذتنا . فنحن لا نعير انتباهنا في هذه الحالة الى الاشجار الملموسة ،انما نفكر بصورة مجردة . ولذا يسمى المفهوم مفهوما مجردا . وهذه هي السمة المميزة للتفكير البشري . وطابعه المجرد مستحيل المنال بالنسبة للحيوانات .

فما الذي يتيح لنا اذن امكانية تجريد علائم الشيء الاساسية اي فصل هذه العلائم عن الشيء نفسه ؟ ان هذه الامكانية تعطينا اياها الكلمة ، النطق . فكلمة «شجرة» تبين لنا ان الحديث يدور عن الشجر بوجه عام ، وليس فقط عن شجرة معينة ملموسة . ومن المستحيل التعبير عن الفكرة المجردة بغير الكلمات .

منذ سن الطفولة ، يتكون وعي الانسان على اساس الكلمات ، اللغة ، ذلك لانه بواسطتها يجري

التعبير عن افكارنا . وفي سياق هذه العملية ينشأ تدريجيا شيء ما لا يتميز به غير الانسان : ان الفكرة وثيقة الارتباط بالنطق . وفصل الوعي البشري ، التفكير عن النطق البشري هو شيء مستحيل . ان وحدة عضوية لا تنفصم عراها تقوم بين اللغة والتفكير .

لقد اكد انجلس ان ظهور النطق المفصل الواضح قد ساعد على اطراد تطور الدماغ البشري . فما هي اذن الاسباب التي جرى هذا بتأثيرها ؟

ان المثل التالي يساعدنا على ايجاد الجواب الصحيح : يعرف التاريخ عدة حالات من «تربية» الاطفال في قطيع من الذئاب . لقد جاء وصف احدى هذه الحالات عام ١٩٥٦ في الهند . كانت ذئبة قد خطفت طفلة لم تبلغ من العمر ثلاث سنوات . وحينما عثروا عليها بعد عدة اعوام وجدوا اللوحة التالية : كانت الطفلة تسير على الاربع وتقلد صياح الحيوانات ، ولا تستطيع الكلام بالطبع . ليس ما يثير الدهشة هنا على الاطلاق : فالطفلة كانت تقلد الحيوانات في كل شيء . غير ان ثمة تفصيلاً طريفاً في هذه القصة . فقد ذهبت جهودهم عبثا لتعليم الطفلة الكلام .

وهكذا لم تسترجع الطفلة سيماءها البشرية ، اي وعيها . كذلك لم تستطع الطفلة التعود على الظروف الجديدة وماتت .

هنا يبرز السؤال التالي : لقد ولدت الطفلة بدماغ بشري طبيعي ، واثناء نموها كان الدماغ ينمو ايضا ، على ما يظهر . فما هو اذن سبب تأخر التفكير عندها بصورة لا امل فيها ؟ يبدو انه لا يكفي ان يملك الانسان دماغا مكتملا حتى يمتلك الوعي البشري . فعليه ايضا ان يعيش في مجتمع ، في جماعة . **فلا وجود للتفكير البشري خارج الجماعة .** فالتفكير ينشأ كنتيجة لحياة الناس في مجتمع . ولا يمكن للتفكير ان يظهر إلا حينما يعكس الانسان الطبيعة من جهة ، وعندما يدخل ، من جهة اخرى ، في علاقات معينة مع اناس آخرين في النشاط العملي الانتاجي . **ان العمل هو الذي خلق الانسان ، المجتمع الانساني .** وفي سياق العمل بالذات ، في سياق النشاط الانتاجي ، تطور الدماغ البشري والوعي البشري . لهذا السبب نوه ماركس بان الوعي هو منذ البداية نتاج اجتماعي وسيبقى كذلك طالما يوجد الناس بوجه عام . ان الوعي هو نتاج حياة الانسان في المجتمع ؛ انه ظاهرة اجتماعية .

وهذا يعني ، انه لا يمكن للوعي ان يكون خارج المجتمع ، كما لا يمكن ان يكون خارجه ايضا النطق ، اللغة . ان النطق المفصل الواضح ، اللغة تنشأ بوصفها ضرورة ، وسيلة لتبادل الافكار ، وسيلة للتعامل بين الناس .

في الكلمات فقط ، تصبح الفكرة واقعية . فطالما هي في رأس الانسان تكون ميتة مستحيلة المنال بالنسبة للناس الآخرين . ولذا اشار ماركس الى ان اللغة هي الواقع المباشر للفكرة . وهذا يعني انه لا وجود للتفكير بغير الغلاف اللغوي ، المادي . وحتى عندما لا نعبر عن افكارنا بصوت مسموع بل نفكر فقط في انفسنا كما يقال ، نغلف ايضا هذه الافكار بغلاف من الكلمات ، بغلاف لغوي . وبفضل اللغة لا تصاغ الافكار وحسب ، بل تنقل كذلك للناس الآخرين .

التفكير والآلة

ان كثيرين قد سمعوا ، بالطبع ، عن الآلات «الذكية» . بل ان البعض قد شاهدها ايضا . انها تقوم باعمال معقدة للغاية : تترجم من لغة الى

اخرى ، وتقود الطائرة ، وتسوق القطار ، حتى انها تلعب الشطرنج . كما انها تنجز بعض العمليات المنطقية التي تلازم الدماغ البشري . فهي « تفهم » متى ينبغي كبح القطار و « تتذكر » بعض العمليات وما الى ذلك . فكأن الفكر البشري يفعل فعله هنا مغلفا بغلاف معدني . وهذه هي الآلات السيبيرنيتيكية (السيبيرنيتيك هو علم الاجهزة ذات القيادة الذاتية) .

ولكن هل يمكن انشاء آلة من شأنها ان تحل مكان الدماغ البشري كليا ؟ كلا ، ان ذلك غير ممكن . صحيح ان الآلة تستطيع ان تقوم على أكمل وجه بما يكيفها الانسان عليه ، بل انها تستطيع اكتشاف حقائق جديدة لا يعرفها مؤسسها . غير ان الآلة ستكون دائما بالنسبة للعقل البشري مجرد مساعد . فهي ، بدون الانسان ، « معدن ميت » .

فلماذا اذن كان دماغ الانسان اعلى بما لا يقاس من اية آلة ؟ ذلك لان دماغ الانسان هو نتاج الحياة الاجتماعية ولان تفكير الانسان ايضا يحمل طابعا اجتماعيا . فليس هناك « دماغ الكتروني » واحد من شأنه « اعـــادة تكوين » العالم الروحي الداخلي للانسان ، وطابعه النشيط ، وتحليق

خياله ، واحلامه ، والمقدرة على الارادة الحازمة ، وعالم الفن المعقد .

ان الآلة لا تستطيع القيام إلا بوظائف الانسان التي تحمل طابعا اوتوماتيكيا مشابها للآلة . ومهما كانت الوظائف التي تقوم بها الاجهزة السيبيرنيتيكية مقام الانسان ، فانها ستكون دائما وسيلة يستخدمها الانسان ، المجتمع ، لحل المهام الانتاجية والمعرفية وغيرها من المهام . ان الآلة لا تستطيع التفكير ؛ انما تستطيع فقط مساعدة الانسان على التفكير . ان ماثرة التكنيك السيبيرنيتيكي تكمن بالضبط في انه يسهل النشاط الفكري عند الانسان .

الفصل الرابع

القوانين والمقولات الاساسية في الديالكتيك الماركسي

لقد اوضحنا ما هي المادة وفي اية اشكال توجد . وسنتعرف الآن على القوانين التي بموجبها تتم حركة المادة ، وكل تطور في الطبيعة والحياة الاجتماعية والوعي (الادراك) البشري . ان هذه القوانين هي أعم القوانين ، ان جميع الاشياء والظاهرات في العالم على الاطلاق تخضع لها . وهي تسمى قوانين الديالكتيك . وهذه القوانين يدرسها الديالكتيك الماركسي بوصفه علما عن أعم قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والتفكير البشري . ان قوانين ومقولات الديالكتيك مرتبطة فيما بينها ارتباطا وثيقا ، وكأنما هي تكمل بعضها البعض وتعطينا مجتمعة التصور الأتم والاشمل عن التطور الجاري في العالم .

١ ـ ما هو القانون

لكي نفهم ما نسميه عادة بالقانون نأخذ ابسط الامثلة . لو رمينـا حجرا فانه سيسقط حتما الى الارض . والشيء نفسه سيحدث مع السهم المنطلق من القوس .

ما عسى ان تكون هذه الظاهرة ؟ وما هو سبب حدوثها ؟ قبل كل شيء ، علينا ان ننتبه الى ان الظاهرة التي نحن بصددها ليست ظاهرة تحدث احيانا واحيانا لا تحدث ، بل هي ظاهرة تحدث حتما وليس بمستطاعها ان لا تحدث . فالشيء المقذوف يعود الى الارض حتمـا بتأثير قانون الجاذبية العالمية (العامة) . وهذا يعني ان هناك نظاما صارما ، تتابعا في هذه الحالة . وعندما نصادف في نشاطنا العملي هذا النوع من الظاهرات فاننا نقول : هنا صلة قانونية ، جوهرية بين الظاهرات .

ان القانون يعبر بالذات عن هذه العلاقات الدائمة العميقة ، اي ان القانون هو العلاقة بين الاشياء والظاهرات ، العلاقة التي لا تسببها الظروف الطارئة ، الخارجية ، العابرة ، بل الناتجة عن الطبيعة الداخلية للظاهرات المترابطة . وفي القانون

لا تنعكس كل الصلات ، وانما فقط الصلات الاساسية والحاسمة .

غير ان هذا لا يحيط بخصائص القانون . ان القانون لا يعرف الشواذ . ان هذا القول يعبر عن معنى القانون ، اي ان القانون لا يفعل في بعض الظاهرات فقط ، بل في جميع الظاهرات الداخلة في المجال المعني . فقانون ارخميدس ، مثلا ، يتحدث عما هو عام ، مشترك بين جميع الاجسام الموضوعة في اي سائل كان . اي ان الصلة المعبر عنها في قانون ارخميدس (بين حجم الجسم وقوة دفع السائل له) تحمل طابعا عاما . وهكذا الحال في كل قانون : فهو يعبر عن العام ، المشترك ، في الظاهرات . وعليه يعطينا القانون المعرفة عن اعمق الاشياء وأعمها .

وفي القانون لا تنعكس الصلة العامة وحسب ، بل الصلة الضرورية ايضا . فالشيء الذي يعبر عنه القانون ينكشف ويبرز بالضرورة وحتما .

في الحياة العملية ، تستخدم كلمة «قانون» احيانا بمعنى آخر . مثلا ، تتبنى هذه الدولة او تلك دستورا جديدا هو القانون الاساسي لحياة البلاد . ان هذا قانون حقوقي ، له قوة قضائية .

اما عندما نتكلم عن المفهوم الفلسفي للقانون ، فاننا لا نقصد القوانين التي يسنها الناس ، بل القوانين الموجودة موضوعيا في الطبيعة نفسها وفي المجتمع ذاته .

وبما ان الاشياء والظاهرات توجد موضوعيا ، فان الصلات القائمة بينها ، اي القوانين التي تتطور بموجبها ، توجد موضوعيا كذلك . ولذا ، **فان أهم سمة للقانون انما هي كونه موضوعيا** . وهذا يعني ان سنّة (قانونية) تطور الطبيعة والمجتمع لا تعتمد على ارادة ووعي الناس ، الامر الذي يثبته النشاط البشري بأسره . فان قوانين الطبيعة كانت تفعل فعلها قبل ظهور المجتمع البشري بزمن بعيد . ان الناس لم يظهروا على الارض الا منذ زمن ليس بالبعيد نسبيا . اما القوانين التي بموجبها يتحرك كوكبنا فانها توجد منذ زمن بعيد ، مثلها مثل الكوكب نفسه . والقول نفسه ينطبق على القوانين الاخرى في الطبيعة .

كذلك تحمل قوانين التطور الاجتماعي طابعا موضوعيا . فالناس لا يستطيعون لا خلق القوانين ولا ابطالها كما يطيب لهم .

اما الفلاسفة المثاليون ، فيأخذون برأي آخر . انهم ينكرون الطابع الموضوعي للقوانين . فقد زعم الفيلسوف الالماني عمانوئيل كانط (١٧٢٤–١٨٠٨) ان الطبيعة نفسها لا تعرف اية قوانين وان كل شيء فيها يوجد في حالة من الفوضى . وان عقل الانسان فقط هو الذي يُدخل في الطبيعة النظام ، السنّة (القانونية) . فلولا وجود الانسان لما وجدت القوانين . ويكرر هذه الفكرة الفلاسفة البرجوازيون المعاصرون ايضا . ولكن ، هل من الصحيح ان يفكر المرء على هذا المنوال ؟

لم يكن لدى الانسان البدائي اي فكرة عن وجود القوانين في العالم . كما انه لم يبحث عنها . وهذا يعني انه لم «يفطر» عليها . وفقط فيما بعد ، حينما علم الناس من الحياة العملية عن وجود صلات قانونية بين الظاهرات ، أخذوا يبحثون عنها ويجدونها في الواقع . ينجم من هذا ان الفهم المثالي للقانون يناقض النشاط العملي الذي يثبت الطابع الموضوعي لقوانين الطبيعة والمجتمع .

وعليه ، يعبر القانون عن الصلة العامة الضرورية الموضوعية والدائمة نسبيا بين اشياء وظاهرات

العالم القائم . غير ان الاقرار بالطابع الموضوعي لقوانين الطبيعة والمجتمع لا يناقض ان الناس يستطيعون معرفة هذه القوانين واستخدامها لمصلحتهم . ان مجمل تاريخ العلم والتكنيك هو بمثابة دليل ساطع على ان الناس يستفيدون من القوانين التي يكتشفونها في نشاطهم العملي . والمادية الديالكتيكية تعترف بالدور النشيط الذي يضطلع به الوعي في حياة الانسان . ان مجرد وجود الحلم والخيال السليم يقنعنا بان الوعي لا يتمثل العالم بصورة سلبية . فكأنه في هذه الحالة يسبق الواقع ويؤثر فيه بشكل فعال . فمعلوم ، مثلا ، ان الخيال الجريء عند الكاتب جول فرن قد سبق اكتشافات علمية كثيرة . وفي وقتنا ، اصبحت النظرية العلمية ، نظرية الماركسية-اللينينية ، قوة جبارة تساعد مئات ملايين الناس على الارض في اعادة بناء العالم القديم على اسس جديدة .

وهكذا ، كما سبق وقيل ، اذا كانت القوانين تقر بالصلات الجوهرية التي تميز جميع الظاهرات في الطبيعة وفي المجتمع والتفكير ، فانها تسمى قوانين عامة ، اي قوانين الديالكتيك .

ما هي اذن هذه القوانين ؟

٢ ـ قانون تحول
التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية

من اجل بناء طائرة بامكانها ان تطير بسرعة تفوق سرعة الصوت ، او بناء صاروخ ، تلزم مواد لا وجود لها في الطبيعة . فمن اين يمكن اخذها ؟ من اين ، مثلا ، يمكن الحصول على سبائك تكون امتن من الفولاذ واصفى من الزجاج ؟ لقد اعطت الكيمياء المفتاح لحل هذه المسألة .

ان العلماء قد تعلموا ايجاد البوليميرات ، اي المواد التي تتكون جزيئاتها من عدد هائل من الذرات . وبتغيير التركيب الكمي للجزيئات اخذ العلماء الكيماويون ينشئون كيفيات جديدة ، خواص جديدة للمواد .

ما هي اذن الكيفية والكمية ؟

ان لكل شيء من الاشياء ما يشبه الوجه الذي نعرف الشيء بموجبه . واذا نظرنا حولنا رأينا ان اي شيء كان – محبرة ، شجرة ، حيوان او اي شيء آخر – يملك علائم ، جوانب ، ملامح تحدده وتعبر عن اهم ما فيه ، عن الذي يصفه ويميزه عن الاشياء الاخرى .

لماذا نقول ان هذا قلم ؟ ذلك لان امامي عمودا دقيقا من الرصاص الاسود محاطا بالخشب بامكاني ان استخدمه في الكتابة والتخطيط والرسم . بهذا قمت بتحديد خواص الشيء الرئيسية ، بتحديد ماهيته (تعريفه) الداخلية ، وكشفت عما يجعله كما هو عليه – عن كيفيته .

وهكذا ، تكون **الكيفية هي الماهية الداخلية ، اي المرتبطة بالشيء نفسه ، انها مجمل سمات الشيء الجوهرية التي يكتسب بفضلها ثباتا نسبيا ويتميز بها عن الاشياء الاخرى .**

على اي اساس نحكم على الكيفية ؟ اليكم هذا المثل . اشترت طفلة من المخزن زجاجة من الحليب وبالصدفة سقطت منها على رصيف الشارع . غير ان الزجاجة لم تتحطم ، بل نطت فقط كالكرة . لقد اهتممنا بهذه الحادثة فوجدنا امامنا كيفية جديدة ، «زجاجا لا يتحطم» واستخلصنا من هذا استنتاجا مفاده اننا امام مواد ذات كيفية جديدة .

لقد اكتشفنا الكيفية الجديدة بفضل **الخواص** الجديدة التي كشفنا عنها . وهكذا نفعل على الدوام . واذا درسنا ، مثلا ، كيفية المعدن ، فان هذا يعني

اننا نستوضح خواصه : لونه ، هل يتأكسد ام لا ، وزنه الذري ، هل هو لين ام صلب الخ . اننا اذ ندرس هذا نعرف ماهية الشيء الداخلية ، اي كيفيته .

وهكذا ، تكون **الخاصية هي علامة شيء ما ، صفة تميز الشيء ، أي خصائصه . وخصائص الاشياء الداخلية هذه هي كيفيتها** . ينجم بالتالي ان **الكيفية تتجلى عن طريق الخواص .**

في المعتاد لا يملك الشيء خاصية واحدة، بل خواص كثيرة . ولذا لا يجوز الخلط بين الكيفية والخاصية . الكيفية هي الوحدة الداخلية لجميع الخواص ، هي مجملها . وهذا يعني ان التعبير عن كيفية الشيء لا تستطيعه خاصية واحدة منعزلة بل جميع الخواص مجتمعة . فالمعدن قد يفقد لونه ، اي احدى خواصه ، ولكنه يبقى معدنا . اما فقدان الخواص جميعها او على الاقل الاساسية منها ، فانه فقدان للكيفية .

ان الاشياء والظاهرات لا توصف من حيث الكيفية وحسب ، بل من حيث **الكمية** ايضا . ومن السهل فهم هذا اذا تذكرنا اننا ، بجانب المسائل

المتعلقة بكيفية الاشياء (ما الذي تمثله) نصادف دائما المسائل المتعلقة بكميتها (كم هي ، ما هو مقدارها ، حجمها الخ .) .

ان الوصف الكمي للاشيـاء والظاهرات متنوع للغاية . لذا يعبر عنه باشكال مختلفة جدا . مثلا ، اذا كانت تهمنا كمية الماشية : الجمال ، الاغنام ، الماعز ، البقر ، فاننا نصفها عدديا ، مثلا ، ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ وهلمجرا . واذا اقتضى الامر معرفة مقدار ما جاءنا من الرز او الفول السوداني في هذا العام بالمقارنة مع العام الفائت ، فاننا نستطيع تبيان ذلك بالنسبة المئوية ، بالاطنان الخ ..

وهكذا ، فان **الكمية هي تعريف (ماهية) الاشياء والظاهـرات الذي يجري وصفه بالعدد ، والمقدار ، والوتيرة ، والدرجة ، والحجم ، وما الى ذلك .**

عندما تتغير كيفية الشيء يتغير الشيء نفسه . ولكن هل يؤدي تغير كمية الشيء الى تغير الشيء ذاته ؟ لننظر في الامر .

يعرف الكثيرون كيف تبنى السدود التي تسد مجرى الانهار . يقوم البناة بقذف احجار هائلة في النهر . ها هم قد قذفوا اولى الحجارة ؛ ليس هناك

سد بعد . ولن يكون كذلك بعد المحاولة الثانية والثالثة . ولكن ، ها قد قذفت في النهر كمية من الحجارة بحيث تؤثر في مجرى المياه تأثيرا جوهريا . بعد قليل سيسد مجرى النهر . لقد تكوّن من الحجارة المتفرقة منشأة ــ سد .

ما الذي حدث اذن ؟ طالما كانت التغيرات الكمية تجري بحدود معينة ، كانت وكأنها لم تؤثر في تكوين كيفية جديدة (السد ، في هذه الحالة) . ولكن ما ان بلغت هذه التغيرات الحد الضروري ، **المعيار** المعين ، حتى أثرت في كيفية الشيء او الظاهرة بالذات .

ما هو اذن المعيار ؟

حسب المرء ان يلقي نظرة الى العالم حتى يقتنع بان الاشياء والظاهرات تكون دائما بمقادير معينة الى هذا الحد او ذاك . فهناك مثلا حجر كبير ، وآخر صغير . ومع ذلك ، فللاحجار حجم معين . انكم لم تشاهدوا على الاطلاق حجرا علوه كيلومتر . انه صخرة بالاحرى . ان ما قيل يؤكد ان جميع الاشياء في العالم يلازمها معيار : فالكيفية المعينة لا تطابقها اية كمية كانت ، بل كمية معينة الى هذا الحد او ذاك .

يكون الناس طوال القامة او متوسطي القامة وغير ذلك . ووزنهم يختلف ايضا . ولكن للناس ، مع ذلك ، طولا معينا الخ .. انكم لم تشاهدوا ابدا ، مثلا ، انسانا يبلغ طوله خمسة امتار ووزانه طنا . ان هذه الكميـــة (طن) لا تتطابق مع الكيفيـة المعنيـــة (الانسان) . وهكذا هو الحال في كل شيء . فجميعها تملك كيفية معينة لا تطابقها اية كمية مهما كانت ، بل كمية معينة الى حد ما . ان المعيار يراعى دائما في الاشياء .

يتضح مما قيل ان **المعيار هو التطابق ، هو وحدة الجوانب الكمية والكيفية في الاشياء** . ان كل شيء هو على الدوام كيفية تطابقها كمية معينة .

ينبثق من هذا استنتاج هام للغاية : اذا جرت في الاشياء تغيرات كمية ، فانها لا تؤثر في الكيفية طالما هي تجري في حدود المعيار . ففي هذه الحدود يكون الشيء وكأنه غير مبال بالتغيرات الكمية وكأنه لا يلاحظها .

ولكن ، ما ان ينتهك المعيار حتى تبدأ التغيرات الكمية تنعكس على الحالة الكيفية في الشيء . فالكمية تنتقل ، تتحول ، الى كيفية .

تتراكم التغيرات الكمية تدريجيا وبصورة غير ملحوظة ، وتكون في البداية وكأنها لا تمس الجانب الكيفي في الشيء . ولكن تأتي لحظة ينكشف فيهـا هذا التراكم وتؤدي فيها التغيرات الكمية الى تغيير كيفيـة الشيء . وعن هذا بالذات دار الحديث في الامثلة السابقة . فعندما تعلم الكيماويون تكوين البوليميرات والحصول على مواد جديدة ، على كيفيات جديدة ، اعتمدوا بالذات على قانون انتقال (تحول) الكمية الى الكيفية .

وينبغي الاخذ بعين الاعتبار ان التغيرات الكمية ليست وحدها التي تؤدي الى تغيرات كيفية ، وان العكس يحدث ايضا ، اي ان التغيرات الكيفية تؤدي الى تغيرات كمية .

لنفترض ان الناس اوجدوا نوعـا جديدا من الفول السوداني . ان هذه كيفية جديدة . ولكن النوع الجديد من الفول السوداني يعطي زيتا اكثر ، وبالتالي ، تؤدي التغيرات الكيفية هنا الى تغيرات كمية . ان الكمية تنتقل (تتحول) الى كيفية ، والكيفية على العكس تنتقل الى كمية .

وعليـه ، يكمن جوهر قانون تحول التغيرات

الكمية الى تغيرات كيفية في ان **التغيرات الكمية الصغيرة غير الملحوظة في البدء تتراكم تدريجيا وتؤدي في مرحلة معينة الى تغيرات جذرية ، كيفية ، وبسبب ذلك تزول الكيفية القديمة وتظهر كيفية جديدة تؤدي بدورها الى تغيرات كمية جديدة .**

ولكن كيف يتم تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية ؟

ان الجميع قد شاهدوا ، بالطبع ، كيف يغلي الماء . في البدء ، يسخن فقط ، وفيما بعد ترتفع الحرارة ، مثلا ، حتى ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٠ درجة . غير ان الماء يبقى ماء . صحيح ان تغيرات قد حدثت الآن ايضا : لقد تغيرت حالة الماء السائل . ولكن مع هذا لم تتغير الى حد يفقد معه الماء كيفيته . وهكذا يستمر الامر حتى تبلغ الحرارة ٩٩ درجة . ولكن ها قد ارتفعت حرارة الماء درجة واحدة اخرى ، وغلى الماء بسرعة متحولا الى بخار . هنا تتغير حالة الماء الكيفية .

استنادا الى هذا المثل ، نستطيع ان نرى بوضوح الطريقة التي تتحول فيها الكمية الى كيفية . في بادئ الامر تسير العملية ببطء ، بصورة

تدريجية : تجري التغيرات الكمية ، التحضيرية ، ولكن عندما تتراكم بصورة كافية تجري عملية التغيرات الكيفية السريعة المفاجئة . ان هذا التحول يسمى **القفزة** . وهذا يعني ان التطور البطيء ، الكمي ينقطع في نقطة معينة وتحل لحظة الانتقال او التحول الى كيفية جديدة ، هذا التحول الذي لم يعد بطيئا ، تدريجيا . ان لحظة الانتقال ، التحول ، الى كيفية جديدة هي القفزة ذاتها . لهذا السبب يعرّف لينين **القفز بأنها نقطة التحول الحاسمة من كيفية قديمة الى جديدة ، بأنها انعطاف حاد في التطور .**

لقد اصبح واضحا مما قلناه ان عملية التطور تمر بمرحلتين ، انها تجري بشكلين : التغيرات البطيئة ، الضئيلة ، الكمية ، والتغيرات السريعة ، الجذرية ، الكيفية . ان التغيرات البطيئة تجري دائما في حدود المعيار القديم ، الكيفية القديمة . فليس هنا بعد تغير جذري للاشياء والظاهرات . بهذا المعنى يمكن تسميتهـــا تغيرات **تدرجية . ان التدرج** (evolution) **هو التطور الهادئ التدريجي البطيء بدون قفزات حادة وتحولات الى كيفية جديدة .**

اما التطور المرتبط بالتحطيم الجذري للقديم ، بالانقلاب الكيفي في العلاقات الاجتماعية والافكار العلمية وحالة التكنيك وما الى ذلك ، فيسمى التطور الثوري .

بيد انه ينبغي الاخذ بعين الاعتبار بان مفهوم «التدرج» كثيرا ما يشوهه الميتافيزيائيون .

يزعم بعض الميتافيزيائيين ان التطور يتم فقط عن طريق التدرج بدون اية قفزات . انهم يقولون ان ما يجري في العالم هي التغيرات الكمية فقط . وليس هناك في الطبيعة اي شيء جديد كيفيا . وهذه نظرة ما يسمى بالتدرج المبتذل ، ذلك لان التدرج يفهم بصورة فظة ، مبتذلة ، مشوهة . ان انصار هذه النظرة ينكرون ضرورة النضال الثوري ضد الامبريالية والاستعمار .

كذلك لا يقل ضررا رأي ميتافيزيائي آخر يلازم الفوضويين وبوجه عام «اليساريين» المغامرين . فان هؤلاء ينكرون عملية التدرج ، عملية التغيرات الكمية ولا يعترفون الا بـ «القفزات» ، «الانفجارات الثورية» بدون مرحلة تحضيرية للتطور ، بدون حشد تدريجي للقوى .

خلافا لهذه الآراء الميتافيزيائية الوحيدة الجانب ، تنطلق المادية الديالكتيكية من وجود صلة عميقة بين الجانبين التدرجي والثوري لعملية التطور . وهذه الصلة تكمن في ان احدى العمليتين غير ممكنة بدون الاخرى : فبدون التغيرات الكمية ، التدرجية لا وجود للتغيرات الكيفية ، الثورية ، وبدون التغيرات الكيفية ، الثورية لا وجود للمعيار الجديد ، للمرحلة الجديدة ، اي لا وجود للتطور .

لننظر الآن في المسألة التالية : ما هي القفزات التي تحدث وعلامَ تتوقف ؟

من السهل ان نقتنع بوجود اشكال مختلفة للقفزات استنادا الى الامثلة التالية . فالتحول من القرد الى الانسان هو بلا جدال قفزة في تطور عالم الحيوان ، ولكن هذا التحول لم يستغرق يوما واحدا ، بل استغرق حقبة تاريخية كبيرة من الزمن – عشرات آلاف السنين . والمثل المتعلق بغليان الماء الذي دار الحديث عنه اعلاه يعطي شكلا آخر للقفزة . ان هذين الشكلين يختلفان احدهما عن الآخر بكون احد شكلي القفزة يستتبع تغيرات جذرية في فترة كبيرة نسبيا ، بينما الشكل الآخر

في ومضة تقريبا . وهذا يعني ان الزمان يلعب دورا كبيرا في تحديد شكل القفزة .

كما انه من غير الصعب ان نفهم ان مختلف اشكال الانتقال من كيفية الى اخرى ، اي مختلف اشكال القفزات ، تتوقف على طبيعة الظاهرات التي تتطور ، وعلى الظروف التي تتطور فيها . وهذا ما يتضح بصورة بيّنة تماما استنادا الى امثال من الحياة الاجتماعية . ففي المجتمع الرأسمالي تجري القفزة نتيجة لمعركة فاصلة ، بسبب ان هذا المجتمع ينقسم الى طبقات متعادية . اما في تطور المجتمع الاشتراكي ، حيث لا وجود للطبقات المتعادية فان القفزات والانعطافات الحادة تجري على اساس الاضمحلال التدريجي لعناصر الكيفية القديمة ونمو عناصر الكيفية الجديدة . ان التغيرات الجذرية تحدث هنا بمقدار تراكم الكيفيات الجديدة .

وفي البلدان المتحررة من النير الاستعماري ، تجري التحولات الجذرية في حيــاة الشعب كنشر التعاونيات الفلاحية ، وانشاء الصناعة ، بصورة تدريجية ؛ فيتغير تركيب الاقتصاد الوطني ، وتزول الاشكال القديمة للانتاج وتظهر اشكال جديدة ، الخ . .

مما تقدم يمكن ان نستخلص ان قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية يكشف الآلية الداخلية لتكوّن الكيفيات الجديدة ، اي اساس التطور نفسه . ولكن ما هي قوته المحركة ، مصدره ؟ يجيب على هذا السؤال قانون آخر للديالكتيك هو قانون وحدة وصراع الاضداد .

٣ ـ قانون وحدة وصراع الاضداد

كانت فكرة التناقضات تشغل بال العلماء منذ امد بعيد . فالميتافيزيائيون ، مثلا ، اذ انطلقوا من انه يجب ألا تكون هناك تناقضات في اقوالنا ، زعموا بانه يجب ألا تكون في الطبيعة ايضا اية تناقضات وخواص وجوانب متضادة الخ . . وكان الفيلسوف اليوناني القديم زينون الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد قد اشار الى ان التناقض ، حيثما اكتشف ، هو شيء ما غير حقيقي ، غير ممكن ، لا معنى له .

كذلك يقف نفس المواقف بعض الفلاسفة البرجوازيين المعاصرين . مثلا ، يزعم الفيلسوف

الاميركي الرجعي سيدني هوك ان المحاكمات والتأكيدات والبراهين قد تكون متناقضة ، ولكن ليس الاشياء والظاهرات على الاطلاق .

غير ان العلم والنشاط العملي يثبتان ان هناك تناقضات وجوانب متضادة في نفس الاشياء ، في الطبيعة . لننظر الى عضوية الانسان والحيوان ، ففيها تجري في آن واحد عمليتان متضادتان : فان خلاياها تنمو وفي الوقت نفسه تفنى . فاذا توقفت احدى هاتين العمليتين ، فان العضوية تهلك . ومثل هذه الامثلة تصادف اينما كان . انها تناقضات الطبيعة نفسها ، ومن المستحيل تجنبها .

فلماذا هي موجودة اذن ؟ لكي نفهم هذا ، علينا ان ننظر اولا فيما نسميه **بالمتضادات** (الاضداد) ومتى تبرز بينها **التناقضات** .

لنتوجه الى نشاطنا **العملي** اليومي العادي . فباي معنى نحن نستعمل كلمة «مضاد» ؟ ان قطب الارض الشمالي مضاد للقطب الجنوبي ، والجانب الايمن مضاد للجانب الايسر من الطريق ، الخ . . وعندما نقارن ، نقابل بين اشياء ما ونرى ان خواصها لا تتشابه بحيث يمكننا ان نعارض بعضها ببعض ، فاننا نقول

ايضا في هذه الحالات ان هذه الاشياء ، الظاهرات متضادة : مثلا ، الانسان الخيّر والانسان الشرير . فلماذا نعارض هذه الظاهرات والاحداث بعضها ببعض ؟ ذلك لأن ظاهرة **تنفي** اخرى . فالخير – فيما يبدو – ينفي الشر ، والشمال ينفي الجنوب ، واليسار ينفي اليمين . **ان الاضداد هي تلك الظاهرات او جوانبها التي تنفي بعضها البعض .**

ولكن لو وجد الشر دائما على بعد من الخير بحيث لا يكون بينهما جامع ، لما كانت اذن بين هذين الضدين اية احتكاكات واصطدامات عدائية ونزاعات وخلافات اي لما كانت بينهما اية تناقضات . ولكن متى تبرز ، فعلا ، التناقضات بين الناس المختلفين من حيث الطبع والآراء ؟ انها تبرز حينما يتلاقون او ، بتعبير آخر ، حينما يتصادمون ، والا استحال حتى الجدال . هكذا بالضبط هي الاضداد .

وهكذا ، لو نظرنا بشكل اعمق لسهل علينا ان نفهم ان الاضداد موجودة في الحياة ، في العالم ، ولا يفصلها بعضها عن بعض جدار لا يمكن اجتيازه . بل انه لا يمكن فهمها الا في صلتها فيما

بينها . مثلا ، الزائد والناقص في الرياضيات ، والفعل ورد الفعل في الميكانيك توجد معا . وبالقوة التي ندفع القارب بها ، يدفعنا القارب بها ايضا . فلا وجود للفعل بدون رد الفعل .

وبين الاضداد المتصل بعضها ببعض تبرز على الدوام علاقات ما . ولهذا السبب تحدث بينها «الاحتكاكات» ، «التصادمات» ، «الخلافات» . فحيثما تصطدم الاضداد ، وحيثما تقوم بينها علاقات ما ، تبرز هناك على الدوام تناقضات ، ذلك لان التي تتصادم هي اتجاهات وقوى متضادة . ولذا ، كان **التناقض هو العلاقة بين الاضداد . اما الاضداد فهي جوانب التناقض .**

لو كانت الاشياء ، الظاهرات لا تتغير ، لو انها كانت تبقى الى الابد كما هي ، لما وجدت فيها الاضداد ، الجوانب التي ينفي بعضها البعض . غير اننا نعرف الآن انها توجد في حركة وتغير وتطور بصورة ابدية . لذا تظهر في الاشياء على الدوام جوانب مختلفة ، بعضها يعيش دهره ويصبح هرما ، اما الجديد فيها فينشأ ويتطور . وباختصار نقول انه تظهر على الدوام في العالم المتطور جوانب

وقوى متضادة ، وهذا يعني انه تظهر التناقضات ايضا .

فما هي علاقتها بعضها ببعض ؟

يمكن الاقتناع مما قيل بان الاضداد توجد في صلة فيما بينها . وهذه الصلة وثيقة لا تنفصم عراها لدرجة ان الاضداد لا تستطيع البقاء خارجها . ونحن نسمي هذه الصلة **وحدة الاضداد** . ان الميتافيزيائيين ينكرون هذه الوحدة . فهم يعتبرون ان كل ضد من الاضداد يقوم بحد ذاته . غير ان الامر في الواقع ليس كذلك . لنأخذ على الاقل عمل المصنع او المعمل او التعاونية .

يوجد في المؤسسة ما يسمى بالنفقات ، اي ما يبذل وينفق من الاموال او البضائع . ولكن هناك ايضا ما يسمى بالدخل ، اي ما يدخل من المبالغ النقدية او البضائع . هل تستطيع المؤسسة ان تنفق فقط دون ان تحصل على اية مداخيل ؟ بالطبع ، كلا . غير انها لا تستطيع العمل ايضا ان لم تنفق النقود على المعدات والخامات وما الى ذلك .

اليكم هذا المثل الآخر . تتكون حياة الحيوان او الانسان ، كما سبق وقلنا ، من عمليتين

متضادتين : تنشأ بعض الخلايا ، وتفنى وتزول خلايا اخرى . ولكن تصوروا انسانا يقول : بغية اطالة العمر يجب ايقاف عملية زوال ، اندثار الخلايا ، وابقاء عملية التجديد فقط ، عملية نشوء الخلايا الجديدة فقط . وعندها سوف تقوم الخلايا بعملية التجديد فقط . ان الانسان الذي يحاكم على هذا المنوال يقترف خطأ كبيرا : فالقضية هي ان الحياة تتكون من عمليتين متضادتين يستحيل فصل احداهما عن الاخرى .

ان من يحاول القضاء على احد الضدين يقضي على الضد الآخر ايضا ، وبالتالي ، على الحياة نفسها . ان عملية الحياة هي عملية واحدة ، وهي في الوقت نفسه عملية متناقضة .

يحاكم الميتافيزيائيون المعاصرون على الوجه التالي تقريبا : توجد في المجتمع الرأسمالي جوانب «حسنة» وجوانب «رديئة» . وبغية شفاء الرأسمالية من كل ما هو «رديء» ، يقترحون تطوير الجوانب «الحسنة» واجتثاث الجوانب «الرديئة» ؛ عندها سنحصل ، على حد زعمهم ، على مجتمع «الرخاء العام» . ان هذا يشبه تفكير

شخص يريد ان يترك في عضوية الانسان ولادة الخلايا الجديدة فقط ويوقف عملية فناء الخلايا القديمة . ولكن كما انه يستحيل تحقيق ذلك في العضوية ، كذلك يستحيل تحقيقه في المجتمع البرجوازي .

ان الاضداد هنا لا يوجد بعضها بجانب بعض ، انما هي في وحدة ؛ انها تتغلغل بعضها في بعض مؤلفة بصورة مجتمعة ما نسميه بالمجتمع البرجوازي . ولذا لا يجوز « انتزاع » احد جانبيه والابقاء على جانبه الآخر . لقد حاول قادة حزب العمال في انكلترا وهم على دست الحكم « تحرير » البلاد من بعض عيوب الرأسمالية . الا ان الامر لم يسفر عن شيء ابدا . وهذا مفهوم : فمن اجل القضاء على « الجوانب الرديئة » في الرأسمالية ، اي على عيوبها ، ينبغي القضاء على الرأسمالية نفسها . وليس هناك طريق آخر .

وهكذا ، **تكمن وحدة الاضداد في انها مترابطة ترابطا لا تنفصم عراه وتؤلف سوية عملية واحدة متناقضة** . فالضدان هما شرطان لبقاء كل منهما ، اي ان احدهما لا يوجد الا لأن الآخر موجود .

ان تصادم المساعي المتضادة يسمى الصراع بينها . وبما ان كل شيء ، كل عملية تتألف من جانبين متضادين ، فمن السهل الاقتناع بانه يدور بينهما على الدوام تصادم ، صراع . ما هو سبب هذا ؟

ان الصراع بين الاضداد يرجع الى انها مترابطة فيما بينها وتوجد في وحدة ؛ وانها في آن واحد تنبذ ، تنفي بعضها بعضا . في هذه الحالة ، كانت الاحتكاكات والتصادمات والصراع امرا محتما . وهذا يعني انه حيث توجد اضداد في وحدة ، يوجد صراع ايضا بينها . وينبغي ان نفهم بصراع الاضداد «طموح» كل منها الى الحصول على الاهمية السائدة ، المسيطرة في الظاهرة المعينة .

نحن نرى انه توجد في الواقع وحدة وصراع الاضداد . فما الذي يلعب اذن الدور الحاسم في التطور ؟

ان ما يلعب الدور الحاسم ليس وحدة الاضداد ، بل صراع الاضداد . فهذا الصراع لا يتوقف لحظة واحدة، وفيه يكمن معنى العلاقة المتبادلة بين الاضداد : وبما ان الاضداد تنفي بعضها بعضا ، فان هذا يعني انها توجد في حالــة صراع . ولذا ، ان كانت **وحدة الاضداد نسبية ، موقتة ، عابرة ، فان صراعها ، كما يعلّم**

لينين ، مطلق ، كما هو مطلق التطور ، الحركة .
وهذا يعني **ان صراع الاضداد هو مصدر تطور الحركة .**

ولكيما نفهم هذا ، لننظر في بعض الامثلة .

ان الكيفية الجديدة ، كما رأينا ، تظهر نتيجة التراكم التدريجي للتغيرات الكمية . ولكن ما الذي يحرك هذه العملية ؟ فعندما يسخن الماء ، مثلا ، تزداد بالنتيجة سرعة حركة جزيئاته . وتضعف بالتدريج قوة جاذبية الجزيئات التي بفضلها تحافظ المياه على حالة السيولة . وفي حرارة الغليان ، تضعف لدرجة انها لا تستطيع الابقاء عليها وتبدأ المياه بصورة شديدة بالتحول الى بخار . ان كل هذا يحدث بنتيجة صراع قوتين متضادتين : من جهة قوة جاذبية الجزيئات ، ومن جهة اخرى القوة التي تدفعها ، الامر الذي بسببه تبدأ الجزيئات بالانفصال بعضها عن بعض . وصراع هاتين القوتين يستمر الى ان تحل اللحظة التي يحل فيها التناقض بينهما : ان القفزة تضع حدا لهذه الوحدة بين الاضداد . وتنشأ حالة كيفية جديدة لتناقضات جديدة : الماء يتحول الى بخار . ينجم من هذا ان حل التناقض يؤدي الى كيفية جديدة ، الى تطور وحركة وتغير .

والشيء انفسه يحدث في المجتمع . فعندما تؤدي التناقضات التي تنخر النظـــام الرأسمالي الى الثورة الاشتراكية ، فان هذا يعني انها قد حانت ساعة حلها . ونتيجة لصراع الاضداد وحل التناقضات يرتفع المجتمع الى درجـــة اعلى ، فيحل محل المجتمع القديم ، البرجوازي مجتمع جديد ، اشتراكي . وهكذا نرى ان صراع الاضداد وحلها هما مصدر تطور المجتمع .

وهكذا يكمن جوهر قانون وحدة وصراع الاضداد في ان **جميع الاشياء والعمليات تلازمها جوانب داخلية متناقضة توجد في وحدة وثقى وفي الوقت نفسه في صراع مستمر** . ان صراع الاضداد هذا هو بالذات المصدر الداخلي ، القوة المحركة للتطور . وقد اسمى لينين هذا القانون **جوهر** ، **نواة الديالكتيك** .

سنحاول جهدنا الآن لتوضيح خصائص تناقضات الحياة الاجتماعية .

ان التناقض بين الرأسمـــالي والعـــامل شيء ، والتناقض بين عاملين لديهما مصالح طبقية مشتركة شيء آخر .

في الحالة الاولى ، تناقضات مستعصية ، طبقية ؛ وفي الحالة الثانية ، تناقضات بين رفيقين في العمل .

ولذا ، تختلف طريقة حلها في الحالتين . الشكل الاول من التناقضات يسمى **تناحريا** ، اما الثاني فيسمى **غير تناحري** . ان التناقضات التناحرية توجد حيث يوجد الصراع بين المصالح التي لا يمكن التوفيق بينها . وفي المجتمع ، تظهر التناقضات التناحرية ، المستعصية بوصفها تناقضات بين قوى ، طبقات متعادية . وهي تؤدي الى النزاعات والاصطدامات بين الاقطاعيين والفلاحين ، بين البرجوازية والبروليتاريا ، بين شعوب المستعمرات والامبرياليين .

وسنبين هذا استنادا الى مثل المجتمع الرأسمالي .

ان المجتمع البرجوازي قد ولى زمنه . فقد اصبح عائقا في طريق التقدم الاجتماعي . وفي وقتنا هذا ، لا يمكن ادارة الانتاج بنجاح الا على اسس البرمجة (التخطيط) . الا ان ذلك يستحيل في ظل الرأسمالية ، لان السيطرة في ظل الرأسمالية تعود للملكية الخاصة وصراع المزاحمة والتنافس الاقتصادي بين هذا الرأسمالي وذاك ، بين هذه الشركة وتلك . وهذا النوع من ادارة الاقتصاد يؤدي الى فوضى الانتاج ، اي الى انعدام البرنامج ، الى انعدام النظام في الحياة الاقتصادية . ومن جراء هذا ، تحدث في

المجتمع الرأسمالي بصورة دورية ازمات فيض الانتاج ، وتتفاقم البطالة وتفتقر الجماهير الشعبية الى امكانية شراء البضائع . وهذا يؤدي الى تقلص الانتاج وازدياد تفشي البطالة .

بهذا التناقض ترتبط سائر التناقضات الاخرى التي تمزق المجتمع الرأسمـالي المعاصر وتقوده الى الهلاك الحتمي .

وهناك تناحر عميق يفرق بين الدول الامبريالية وبين البلدان التي احرزت حديثا استقلالها الوطني او التي تناضل في سبيل التحرر . فشعوب افريقيا وآسيا والشرق الادنى واميركا اللاتينية تأبى الرضوخ للنهب الامبريالي ، وتخوض النضال في سبيل تحررها . ان تناحر العمل والرأسمال ، والتناقضات بين الشعب والاحتكارات ، وتفسخ النظام الاستعماري ، والتناقضات بين الدول الوطنية (القومية) الفتية والدول المستعمرة القديمة ، والشيء الرئيسي النمو العاصف للاشتراكية العالمية ، ان كل هذا يجرف ويدمر الامبريالية ويؤدي الى اضعافها وهلاكها . هذا هو الواقع الرأسمالي الذي تمزقه التناقضات التناحرية الداخلية التي تقود الى هلاك الرأسمالية ، هذا النظام الاستغلالي الاخير .

كيف تحل اذن التناقضات التناحرية ؟

ان التناقضات التناحرية هي تناقضات مستعصية بين قوى ومصالح واهداف وآراء اجتماعية متعادية تؤدي الى نزاعات واصطدامات . ان حلها يتحقق عن طريق النضال العنيف ، عن طريق الثورة الاجتماعية . فلا يمكن حل التناحر في اطار العلاقات الاجتماعية القديمة . فمن اجل حله ينبغي القضاء على هذه العلاقة بطريقة ثورية . ولكن هل يعني هذا ان اشكال وطرق حل التناقضات التناحرية هي دائما نفسها ؟ كلا . انها رهن بالظروف التي تحل التناقضات التناحرية فيهـــا . ولذا تلاحظ في مختلف الظروف التاريخية اشكال مختلفة لحل التناقضـات التناحرية . مثلا . لقد احرز عدد من البلدان الاستقلال الوطني في نضال مسلح طويل الامد ضد المستعمِرين ، وظفر به عدد آخر في نضال عنيد مديد قامت به الجماهير دون نضالات مسلحة مباشرة .

امـا التناقضـــات غير التناحرية ، فتتميز عن التناقضات التناحرية بكونها تعبر عن تناقضات بين قوى اجتماعية لهـــا في الوقت نفسه مصالح حيوية مشتركة . ومن هذه التناقضات مثلا ، التناقضات بين

الطبقة العاملة والفلاحين ، بين العناصر المتقدمة والمتأخرة في المجتمع الذي يبني حياته على اسس جديدة .

في ظل التناقضات غير التناحرية التي يتصف بها المجتمع الاشتراكي ، ينعدم احتدام وتعمق التناقضات وتحولها الى تضاد متعاد . بل ان الامر على العكس . فاذا كانت توحد الطبقات مصالح جذرية مشتركة ، انكشف هنا ميل الى تلطيف التناقضات وتليينها . لهذا السبب تختلف طرق حل هذه التناقضات عن طرق حل التناقضات التناحرية كما تختلف التناقضات نفسها . فهي لا تصفى عن طريق الثورات الاجتماعية والانقلابات السياسية ، بل بالتربية والانتقاد والانتقاد الذاتي ، وكذلك بطرائق اخرى تنبثق من الوضع الملموس . وفي المجتمع الاشتراكي ، يجري الكشف عن التناقضات في الوقت المناسب ، وتحدد بالتالي السبل الملموسة لحلها . ولذا ، لا تتحول ابدا الى اصطدامات مستعصية بين قوى ومصالح متعادية ، ذلك لانه توجد في ظروف المجتمع الاشتراكي وحدة المصالح ، ويجري تعزيز الوحدة الفكرية السياسية للمجتمع بأسره .

وفي البلدان النامية المتحررة من الاستعمار ، لا يمكن حل التناقضات الاجتماعية كافة بنجاح الا على سبل تطورها غير الرأسمالي . ان انعدام التناقضات التناحرية في المجتمع الاشتراكي لا يعني انه ليس هناك اية تناقضات على الاطلاق . ففي ظل الاشتركية تفعل فعلها تناقضات غير تناحرية يمكن حلها بنجاح في اطار النظام الاجتماعي القائم .

ولكن كيف يجري التطور ؟ وفي اي اتجاه يسير ؟ يعطي الجواب على هذين السؤالين قانون نفي النفي .

٤ ـ قانون نفي النفي

نعلم جميعا بانه تصادفنا على الدوام في العالم المحيط بنا ظاهرة طبيعية مثل الهرم ، الاندثار ، الموت . ومهما كانت الظاهرة الطبيعية التي نرى اليها ، فان لها بداية ، اي انها نشأت في وقت ما ، وفيما بعد تتطور وتنمو وتتقوى وبعد ذلك تهرم ويولي زمانها .

وهكذا نرى ان جوهر النفي يكمن في ان عملية دائمة تجري في العالم هي عملية التجدد والنفي وهلاك

الظاهرات القديمة وظهور الجديدة . وبالتالي ، يعني النفي تطور الظاهرة ، وانتقالهـــا الى درجة جديدة ، اعلى .

لكي نفهم هذا ، ينبغي الاخذ بعين الاعتبـــار ان عملية نفي ، هلاك الظاهرات التي ولى زمنها تجري باشكال شتى . مثلا ، ان كل آلـة تبــلى وتؤول الى حطام . وهذا مثل للنفي في معناه اليومي الدارج الذي دار الحديث عنه اعلاه .

ولو قمنا بمجرد تحطيم الآلة وابادتها لما تكونت عن طريق عمل النفي هذا اية ظروف لتطور جديد . ان مثل هذا النفي يصادفنا ايضا في الحياة . بل انه يصبح في ظروف معينة امرا ضروريا . بيد ان الخط الاساسي للحركة التاريخية هو البناء .

ان الظاهرات الجديدة التي تبرز في الطبيعـــة والمجتمع تمر هي ايضا في طريقها الطبيعي ، اي انها مع مرور الزمن تهرم وتخلي المكان لظاهرات وقوى اكثر جدة منها . واذا كانت في السابق قد نفت القديم لكونها جديدة ، فانها ، اذ اصبحت الآن انفسها قديمة ، يجري نفيها من قبل ظاهرات افتى منها وأجد وأقوى . هذا هو **نفي النفي** . وبما

ان في العالم كمية لا حصر لها من الظاهرات ، فان عملية النفي تجري بلا انقطاع وبلا نهاية ، اي ان عملية نفي القديم وبناء الجديد تجري بلا انقطاع .

فالامَ تؤدي هذه العملية ؟ اليكم هذا المثل . ان تنشئة المحصول تجتاز عدة مراحل متتالية : انبات البذور ، نموها ، نضجها وجمع المحصول . في اثناء الانبات تتلاشى البذور الموجودة في التربة وتكف عن كونها بذورا . انها قد تعرضت للنفي . ومن هذه البذور تنمو نبتات جديدة . وهذه النبتات تزهر وتلقح وفي النهاية تعطي الثمر ، البذور . ان مجمل عملية تنشئة المحصول هو نفي النفي بعينه .

صحيح اننا قد وصلنا الى نفس الشيء الذي بدأنا منه ، ولكن هذا تكرار على اساس جديد ، اعلى . فلو ان الناس وصلوا عند جمع المحصول الى النتائج الاولية من حيث الكمية لكان من غير المفيد القيام بفلاحة التربة . ان البداية (بذر الحبوب) والنهاية (جمع المحصول) في مثلنا هما درجتان في التطور تختلفان كيفيا : انهما درجة دنيا ودرجة عليـــا . ونتيجة لهذا لا يراوح التطور في مكانه ، انما يتقدم من ادنى الى اعلى .

وهكذا ، **يتلخص جوهر قانون نفي النفي فيما يلي : في عملية التطور تقوم كل درجة اعلى بنفي واقصاء الدرجة السابقة ، وترفعها في الوقت نفسه الى درجة جديدة وتحافظ على كل المحتوى الايجابي في تطورها .**

ان نفـي النفي الديالكتيكي يفترض **النفي والمحافظة** على حد سواء ، ولكن المحافظة على كل ما هو ايجابي في الظاهرة القديمة . وبدون هذا يستحيل التطور . ان النفي الديالكتيكي هو بمثابـة ناحية الصلة بدرجة التطور السابقة ، بمثابة حاصل هذا التطور . فهو يعبر عن التواتر الوراثي في التطور . ان معنى النفي الديالكتيكي يكمن بالذات في كونـه يرمز الى تخطي درجة التطور السابقة وليس التطويح بها . مثلا ، لم تظهر الفلسفة الماركسية على مكان خال . انها الوريث والمتمم الجدير لكل تقدمي كان قد انشأه الفكر الفلسفي في الماضي .

ما هو طابع التطور اذن ؟

معلوم ان الانسان قد بدأ نشاطه العملي بصنع ادوات العمل . وفي درجة معينة من التطور التاريخي اخلت الادوات الحجرية المكان للادوات

المعدنية . ان الاخيرة بمثابة نفي للادوات الحجرية ، غير انه قد أبقى فيها على كل ما هو قيّم في الاولى ، مثلا ، مقدرتها على القطع وشكلها (مثل الفأس الحجرية والحديدية) وما الى ذلك .

ان صنع الآلات كان تقدما جديدا في تطور ادوات الانتاج . فنول الحياكة الميكانيكي هو نفي للنول اليدوي . الا انه نفي ديالكتيكي لانه يحافظ الى حد ما على مبدأ عمل نول الحياكة اليدوي القديم . وهذا ما يحدث دائما في التكنيك . ان التصميمات الجديدة للآلات هي نفي للآلات القديمة ، ولكن مع المحافظة الاكيدة لذلك الشيء القيم الذي اكتسبته التجربة الانتاجية السابقة .

هذا هو طابع كل تطور اذا كان يجرى نتيجة لنفي النفي . ان المرحلة العليا هي المرحلة العليا لانها ، على وجه الدقة ، ترفع وتغني التطور بمجمله . من هذا ينبثق استنتاج هام : **ان التطور الذي يتم نتيجة لنفي النفي يحمل طابعا تقدميا صاعدا .**

ان هذا الاستنتاج ينطبق على تطور الطبيعة والمجتمع البشري على السواء . فالتطور في الطبيعة هو انتقال من درجة دنيا ، من الطبيعة غير الحية

الى درجة اعلى منها ، الى الطبيعة الحية . وهو في المجتمع الطريق الذي جرى اجتيازه من النظام المشاعي البدائي الى الاشتراكية ، الطور الاول من الشيوعية . ونصادف الشيء نفسه في تطور العلم ايضا .

وعليه ، نرى اينما كان السنّة نفسها : التطور يسير بصورة صاعدة ، اي من الادنى الى الاعلى ، من البسيط الى المركب . وفي هذا يكمن جوهر قانون نفي النفي .

اما الذين ينظرون الى العالم نظرة مثالية برجوازية فانهم يفهمون سير الحوادث التاريخية فهما مختلفا تماما ، فهما مشربا بالتشاؤم ، اي بالنظرة القاتمة الكئيبة الى الحياة .

ان بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع البرجوازيين ، اذ يرون ان عالم الرأسمالية ينهار ، يصورون افول هذا النظام الاجتماعي على انه ازمة الثقافة والتفكير والنزعة الانسانية بوجه عام . انهم يكثرون من الحديث عن «الكارثة الذرية» و «نهاية المدنية» و «نهاية العالم» وما الى ذلك . غير ان العلم والنشاط العملي يدحضان مثل هذه المزاعم التي يرددها

الفلاسفة البرجوازيون . ان التطور الصاعد ، التقدمي للطبيعة والمجتمع البشري هو قانون موضوعي ثابت .

وهذا ما تؤكده نجاحات البلدان الاشتراكية في تطوير الاقتصاد والثقافة . وتؤكده ايضا مشاريع تنمية البلدان المتحررة من النير الاستعماري .

واذا كان يبدو للعيان احيانا ان نتيجة نفي النفي هي عودة الى القديم ، فان هذا من حيث الشكل فقط وليس من حيث الجوهر ، لان الذي جرى في عملية النفي هو اغناء القديم ورفعه الى درجة اعلى .

ان التطور الصاعد للطبيعة والمجتمع غالبا ما يذكرنا بالحلزون . فللحلزون عدد كبير من الحلقات ولكنها لا تلتقي ولا تتكرر . هل شاهدتم يوما كيف يرتقون في السلم اللولبي ؟ يبدو للمرء ان الانسان يدور في حلقة اما في الواقع فانه ، اذ يبدو وكأنه يدور في حلقة ، يرتفع على الدوام اعلى فاعلى . وسبب ذلك انه يدور في خط حلزوني ، في حلزون . ان هذه المقارنة تفصح عن جوهر قانون نفي النفي .

وهكذا يجري التطور حسب الحلزون ، ومع كل دورة جديدة ، مع كل نفي ، يظهر شيء ما

ذو كيفية جديدة هو الذي يرفع التطور الى درجة اعلى .

في الحياة اليومية يفهم بالجديد الشيء الذي صنع لاول مرة ، الشيء الذي ظهر حديثا . اما المعنى الفلسفي لهذا المفهوم ، فيختلف بعض الشيء وهو اكثر عمقا . فاذا ظهرت في الغرب ، مثلا ، مدرسة فلسفية ما اطلق عليها اسم مدرسة فلسفية جديدة تقوم تحت ستار الجدة بمجرد بعث الافكار البالية التي ولّى زمانها منذ امد بعيد ، فانه لا يجوز باي حال من الاحوال تسميتها ظاهرة جديدة . فهي ، على العكس ، ظاهرة قديمة مندثرة لا مستقبل لها .

وغالبا ما يظهر القديم في الحياة تحت ستار الجديد . وهذا شكل كثير الشيوع وفي الوقت نفسه شكل مموه لنضال القديم ضد الجديد . لنأخذ المثل التالي :

معلوم ان الاشكال القديمة للاستعمار قد منيت بالفشل الذريع . وحاليا يسعى الامبرياليون جهدهم لكي يفرضوا على البلدان المتحررة اشكالا جديدة من التبعية الاستعمارية ، عارضين «مساعدة» هم على

7*

الدول النامية ومؤسسين اتحادات توافق المستعمرين الخ .. غير ان الاستعمار الجديد لا يفضل بشيء الاستعمـــــار القديم . ان الشعوب المتحررة تفهم هذا جيدا وتواصل النضال ضد الاستعمـــــار الجديد .

تفهم الماديـــة الديالكتيكية بالجديد الظاهـرة التي تعبر عن التطور الصاعد . ان الجديد هو الطليعي ، التقدمي ، هو المرتبط ارتباطا ضروريا بالتجدد ، بالتطور من الادنى الى الاعلى .

ما هي اذن العلاقة بين الظاهرات القديمة والجديدة ؟ قبل كل شيء ينبغي التأكيد بان الجديد لا يظهر بعيدا عن القديم ، لا يظهر بمعزل عنه ، بل في احشائه حيث تظهر عادة اما اجنة ، بذور الجديد ، واما الظروف الملائمة لنشوئه . وبمقدار تطور الجديد يهرم القديم ويضعف ويفقد قواه ، اما الجديد فيترعرع ويقوى ساعده . والجديد هو دائما النفي الديالكتيكي للقديم ؛ وهو ينشأ في مجرى صراع الاضداد . ان **حتمية الجديد** هي قانون التطور التاريخي . ويتأكد هذا بصورة قاطعة في وقتنا الذي نشأت فيه على انقاض النظام الاستعماري القديم

دول فتية جديدة . ان هذه الدول هي قوة جديدة منيعة في النضال ضد الامبريالية .

وهكذا درسنا قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية ، وقانون وحدة وصراع الاضداد ، وقانون نفي النفي . اما الآن ، فسنتعرف ايضا على مقولات الديالكتيك المادي .

٥ ـ مقولات الديالكتيك الماركسي

ما هي المقولات الفلسفية

ليس بوسع الناس الاستغناء عن المفاهيم العامة . فالفيزيائيون ، مثلا ، يدرسون خواص الاجسام المختلفة كمقدرتها على حفظ حالة السكون الاولية او الحركة الرتيبة المتعادلة . غير انهم لا يستطيعون الاكتفاء بهذا . ذلك لانه يبرز امامهم حتما السؤال التالي : لماذا تتجلى هذه الخواص في جميع الاجسام ، وما هو المشترك بينها ؟ هكذا ، على اساس دراسة خواص بعض الاشيـــاء ، يقوم الفيزيائيون بصياغة مفهوم عام هو مفهوم «قوة الاستمرار» . وينبغي قول الشيء نفسه عن الكتلة ـ مقياس سكون الاجسام . هنا ايضا لا يجوز الاكتفاء بدراسة كتلة

بعض الاجسام ، بل من الضروري صياغة موضوعة عامة عما هي الكتلة بوجه عام . على هذا المنوال بالضبط يتكون كذلك في الفيزياء المفهوم العام « الطاقة » .

ولكن ، هل تكفي هذه المقولات القائمة في العلوم الملموسة ؟ فكل منها تدرس المفاهيم العامة في حدود علمها . غير اننا نعلم الآن بان هناك اعم الخواص للاشياء والظاهرات في العالم . ان الفلسفة بالذات هي التي تصوغ هذه المفاهيم العامة .

ان اعم خواص الاشياء تنعكس **في المقولات الفلسفية** ، في مقولات معروفة لدينا الآن مثل « المادة » ، و « الحركة » ، و « المكان » ، و « الزمان » ، و « الكيفية » ، و « الكمية » ، و « التناقض » ، الخ .. **ان المقولات الفلسفية هي أعم المفاهيم** . وبالتالي ، يستحيل الاكتفاء بالمقولات التي تضعها الفيزياء والكيمياء وغيرهما من العلوم الخاصة . ففي عملية المعرفة تتكون مقولات فلسفية للتعبير عن اعم خواص ظاهرات العالم القائم . وسننظر ادناه في مقولات مثل العلة والمعلول (السبب والنتيجة) ، الضرورة والصدفة ، الضرورة والحرية ، المحتوى (المضمون) والشكل .

ما هي مقولتا «السبب» و«النتيجة» (العلة والمعلول) ؟

اننا نعرف من التجربة انه ما من ظاهرة تنشأ بدون سبب ، «من تلقاء نفسها» . فهي تتولد اما عن التطور الذي سبقها واما عن ظاهرات اخرى. وما من شيء ينشأ من لا شيء . ان لكل ظاهرة مصدرها ، اي الشيء الذي تولدت عنه . وهذا الشيء يسمونه «السبب» («العلة») . **السبب** هو الشيء الذي يحفز ، يخلق ، ينتج ، يبعث الى الحياة ظاهرة اخرى . اما الذي ينشأ بتأثير السبب فيسمونه **النتيجة (المعلول) او الفعل .**

مثلا ، عندما يقوم الفلاح في التعاونية بتسميد نبات الرز او القطن ، فان هذه الاسمدة تزيد من مردود هذين المحصولين . وهذا يعني ان الاسمدة سبب ، وزيادة المحصول نتيجة .

وهكذا ، **تعكس المقولتان الفلسفيتان «السبب» و«النتيجة» العلاقة بين ظاهرتين تثير معها احداهما ، وتسمى السبب ، بصورة حتمية ظاهرة اخرى تسمى النتيجة . اما العلاقة نفسها فتسمى العلاقة بين السبب والنتيجة .**

ان العلاقة الناشئة بين الاسمدة التي سمدت بها التربة ومردود المحصولين توجد مستقلة عن وعينا ، في الواقع نفسه ، في الطبيعة . يتضح من هذا المثل ان كل علاقة سببية تثيرها الاشياء الموجودة واقعيا . ولذا ، **كانت اهم سمة للعلاقة بين السبب والنتيجة هي طابعها الموضوعي.**

ان المفكرين الذين يرون انه توجد في الطبيعة والمجتمع شرطية سببية عامة للظاهرات مستقلة عن الانسان يسمون **بالحتميين** او **الجبريين**(déterministes) . وهكذا ، يعتبر الحتميون ان جميع ظاهرات الطبيعة قد حتم وجودَها ، فعلَها هذا السببُ او ذاك ، هذه السنن او تلك . وكل ما يجري في العالم هو ضروري بالضبط لانه قد تحدد، او كما يقول الفلاسفة ، قد تحتم .

على امتداد تاريخ الفلسفة كله ، والحتميون يخوضون النضال ضد النفي المثالي للسببية ، ضد **اللاحتمية (اللاجبرية)** . ان المثاليين من مختلف المفاهيم والنزعات ينطلقون من ان الانسان قد اوجد السببية من اجل «الراحة» ، من اجل ادخال النظام في «فوضى ظاهرات الطبيعة» . مثلا ، لقد حاول

الفيلسوف المثالي الذاتي بركلي دحض فكرة السببية ذاتها . والشيء نفسه من حيث الجوهر حاول القيام به المثاليون الآخرون اذ انكروا الوجود الموضوعي للسببية .

انهم يدعمون موضوعتهم القائلة بالطابع الذاتي للسببية بالمحاكمات التالية ، مثلا : ان الشمعة الملتهبة تحرق اليد في كل مرة تلامسها . ولكن لا ينجم عن هذا ، على حد زعمهم ، بانها ستسبب الحرق بكل تأكيد فيما بعد ايضا . لقد حدث هذا مليون مرة ؛ اما المرة الميلون والواحدة فقد يكون الحال على غير ذلك تماما . وواقع ان الشمعة الملتهبة تسببت بالحرق حتى الآن لا يعني ان الشمعة سبب الحرق .

ان هاتين الظاهرتين – الشمعة الملتهبة والحرق – يوجدان ، على حد زعمهم ، جنبا الى جنب ، ولكن لا يجوز ان نستخلص من هذا ان بينهما علاقة سببية . ان هذه المحاكمات باطلة ، واليكم لماذا . اننا لا نحكم على السبب على اساس المشاهدات فقط . بل اننا ندرسه على اساس التجربة والنشاط العملي ، اللذين يكشفان لماذا ، مثلا ، تؤدي النار الملتهبة الى الحرق بالضرورة .

توجد في العالم كمية لا حصر لها من العلاقات السببية ، ولكن ليست جميعها تلعب دورا مشابها . ان بينها علاقات رئيسية ، اساسية ينبغي بالدرجة الاولى تمييزها .

فكيف نفعل ذلك ؟

لقد اكتشفنا ان الذرة المبذورة لم تنبت ، فاخذنا نبحث عن سبب ذلك . وبما ان الصلات والعلاقات بين الظاهرات كثيرة ، فان الاسباب تكون عادة كثيرة ايضا . بيد ان التحليل يثبت دائما بان هناك اسبابا اساسية رئيسية ، اي اسبابا تحدد الاسباب الباقية كافة . وفي مثلنا ، قد تكون هذه نقصان الحرارة ، وزيادة الرطوبة ، ومدد البذر غير الطبيعية ، وعدم جودة البذار ، الخ ..

ان ايضاح السبب الاساسي امر هام لانه يتيح الفرصة للتأثير بصورة حاسمة على النتيجة المعنية . غير ان ما قيل لا يعني باي حال من الاحوال انه يمكن عدم الالتفات الى الاسباب غير الاساسية . انه ينبغي تبيانها ايضا واذا كانت تعيق الامر وجب السعي الى اقصائها .

وبما ان السبب يلد النتيجة ، فان بينهما علاقة معينة . الا ان الميتافيزيائيين يفهمونها فهما وحيد الجانب – فقط كتأثير السبب على النتيجة . ولكن ، هل تؤثـــر النتيجـــة على السبب ؟ ليس بوسع الميتافيزيائيين ان يجيبوا بصورة صحيحة على هذا السؤال ، ذلك لانهم يفصلون الضدين احدهما عن الآخـــر – يفصلون السبب عن النتيجـــة (العلة عن المعلول) .

انهم يحاكمون على الوجه التالي : ان هذه الظاهرة قد تكون اما سببا واما نتيجة . واذا ظهرت كسبب ، فانها لا تستطيع بعد هذا ان تكون نتيجة .

ولكن هذا غير صحيح . ذلك لان بين السبب والنتيجة **تفاعلا** . ما هو قوامه ؟ سنبين هذا استنادا الى المثل التالي . ان المادة ، الوجود يولد الوعي ، الا ان الوعي يؤثر بدوره في الوجود ويقف منه بصورة فعالة . هنا يتجلى بوضوح الفعل المتبادل ، التبعية المتبادلة للسبب والنتيجة وتأثيرهما المتبادل احدهما في الآخر .

ولكن ألا يعني مـا قيل ان السبب والنتيجة يشترطان احدهما الآخر بدرجة متساوية ؟ كلا بالطبع ،

لان السبب هو الذي يلعب دائما الدور الحاسم في العلاقة بين السبب والنتيجة . انه هو بالذات الذي يحدد هذه العلاقة المعينة بين السبب والنتيجة ؛ اما النتيجة ، فتلعب دورا هاما الا انه ، رغم ذلك ، دور تابع . ان فهم هذا على جانب كبير من الاهمية . فمن المهم ان نعرف ما الذي يجب اعتباره السبب في علاقة معينة بين سبب ونتيجة وما الذي يجب اعتباره النتيجة ، كما هو من المهم بالنسبة للعلم ان يعرف المسألة التالية : المادة هي التي تحدد الوعي ام على العكس ؟ بيد ان هذا لا يعني ايضا انه من الممكن تجاهل تأثير النتيجة على السبب .

علاوة على ما قيل اعلاه ، يملك مفهوم الفعل المتبادل معنى آخر . ويمكن توضيحه استنادا الى المثل التالي : ان المحراث يفلح الحقل افضل من المعزقة ، والتربة المفلوحة بصورة افضل تعطي مردودا اكثر ، واذ يجمع الفلاحون مزيدا من الغلة يملكون مزيدا من المؤن ، وهكذا دواليك . نستخلص من هذا ان الحقل المفلوح بصورة حسنة يقوم هنا مقام النتيجة بالنسبة للمحراث ، ولكنه يقوم مقام سبب المحصول الاعلى ، وهذا بدوره يقوم مقام

سبب رفع مستوى معيشة الشعب . وهكذا نجد امامنا سلسلة حقيقية من العلاقات بين السبب والنتيجة .

واننا اذ نمعن التفكير في هذه السلسلة من العلاقات بين السبب والنتيجة ، نرى انها تتكون من ظاهرات مترابطة فيما بينهـــا . انه ينبغي النظر الى كل سبب او نتيجة لا بصورة منعزلة ، وانما بالصلة مع تلك الظاهرات التي ولدتهما او المتولدة عنهما . وعندها نرى ان الشيء نفسه هو في آن واحد سبب ونتيجة . انه سبب بالنسبة للظاهرة التي سببها ؛ ولكنه نتيجة بالنسبة للظاهرة التي ولدته . وضمن هذا الفهم لا يكون السبب والنتيجة منعزلين ، قطبين متضادين . انهما حلقتان في سلسلة معقدة من الاشياء والظاهرات التي يتفاعل بعضها في بعض . وهكذا ، على حد تعبير انجلس ، **يوجد في العالم تفاعل عام قوامه ان السبب والنتيجة يتبادلان الاماكن على الدوام ؛ ان ما يكون في بعض ظروف المكان والزمان سببـــا يصبح في ظروف اخرى نتيجـــة ، والعكس بالعكس .**

ان للمذهب الماركسي-اللينيني عن السببية اهمية كبيرة في دحض شتى انواع الخرافات .

ان الذين يعتقدون الخرافات كثيرا ما يربطون ظاهرتين بعلاقة السبب والنتيجة ، منطلقين فقط من العلائم الخارجية ، على اساس انهما قد تبع بعضهما بعضا من حيث الزمان فقط ، مع انه لا وجود للصلة السببية بينهما في واقع الامر.

وعندما يفهم الانسان الاسباب الفعلية لا الوهمية للظاهرة ، عند ذاك فقط يزول من نفسه الرعب وتزول في الوقت ذاته الخرافة ايضا . اليكم هذا المثل . كان الرحالة الى افريقيا يزعمون في وقت ما بانهم رأوا «في السماء» جنائن من الفردوس هائلة المساحة . وكانوا احيانا يتحدثون بان سفينة هوائية كانت تشاهد في السماء وعليها بحارة اشباح ، وبعد ذلك تلاشى كل شيء . ما عسى ان يكون ذلك ؟ قبل ان يعرف السبب ، كانت تروج مختلف الاشاعات الكاذبة بهذا الصدد . غير ان العلماء كشفوا فيما بعد اسباب هذه الظاهرات الخارقة للغاية . فتبيّن ان الهواء في البلدان الحارة وفي الطقس الهادئ يصبح اكثر كثافة مكوّنا ما يشبه مرآة جبارة . وفي هذه «المرآة» تنعكس المواد الواقعة على الارض او في عرض البحر : الجنائن والسفن الخ .. فالناس اذن

لم يروا جنائن من الفردوس ، وانما انعكاس البساتين الموجودة فعلا على الارض ؛ لم يروا السفن الهوائية ، وانما انعكاس السفن التي تمخر عباب البحر . لقد كان ايجاد اسباب هذه الظاهرات كافيا لازالة الرعب الخرافي امامها .

وهكذا ، تحرر معرفة الاسباب من الخرافات .

ان دراسة الاسباب تساعدنا ايضا على فهم ظاهرة من اطرف ظاهرات الطبيعة وهي **العقلانية** الموجودة فيهـــا .

حسب المرء ان يلقي نظرة خاطفة على العالم المحيط حتى يكتشف فيه الانسجام والتتابع المذهلين . ان العقلانية في الطبيعـة تتجلى ، مثلا ، في تكيف الحيوانات والنباتات لظروف حياتها ، للبيئة المحيطة بهـــــا .

وبما ان الفلاسفة المثاليين عاجزون عن تفسير حقائق العقلانية والنظام ، التي يصادفونها اينما كانوا في الطبيعة ، فقد اخذوا يزعمون ان ما يحدد نشوء وتطور جميع الاشيـــاء في الطبيعة ليس الاسبـاب المادية وقوانين الطبيعة نفسها ، بل الهدف الذي ترمي اليه ومهمتها والغرض من وجودها .

لقد اطلق على هذا الرأي اسم **الغائية** .

ان انجلس يهزأ من هذه المحاكمات ملاحظا ان القطط ، طبقا للنظرة الغائية الى العالم ، قد خلقت من اجل ان تبتلع الفيران وان الفيران خلقت من اجل ان تبتلعها القطط ؛ وقد اوجدت الطبيعة كلها للبرهنة على حكمة الخالق .

ان المثاليين يأخذون بنظرية الغائية حتى يومنا هذا .

ولكن هل لنظرية الغاية اي معنى علمي كان ؟ هلموا ننظر في الامر .

قبل كل شيء ، ينبغي الاخذ بعين الاعتبار اننا مهما امعنا النظر في المسألة المتعلقة بغاية نشوء هذه الظاهرة او تلك ، فاننا لن نتقدم خطوة واحدة الى الامام في فهم طبيعتها . فلاجل فهم الظاهرة ينبغي معرفة الاسباب التي بحكمها نشأت وما الذي انشأها وبما ترتبط . فقط بطرحنا السؤال : لماذا وبحكم اية اسباب توجد العقلانية المذهلة القائمة في الطبيعة ، فقط بهذا نستطيع فهم جوهر الظاهرات الدائرة في العالم . اما وجهة النظر المنطلقة من نظرية الغاية ، فهي موجهة بالذات ضد هذا التفسير العلمي السببي لظاهرات الطبيعة .

اليكم مثلا واضحا على ذلك . تجهد الاسماك قبل العاصفة لمغادرة منطقة الشاطئ كي لا تقذف الى الشاطئ . كذلك تختفي المدوسات . وهذه هي العقلانية بالنسبة لهذه المخلوقات الحية .

عندما يحلل المرء مثل هذا السلوك عند المخلوقات الحية يصعب عليه التخلص من التفكير بـ« اعجوبة » هذه الظاهرات . ولكن حينما يكشف العلم اسبابها الطبيعية يغدو كل شيء واضحا . فقد ثبت انه عندما تهب العاصفة بعيدا عن الشاطئ تصل اليه امواج صوتية لا يستطيع الانسان سماعها . وهذه الامواج الصوتية تنتشر على مسافة عدة آلاف من الكيلومترات . لذا ، فان العاصفة التي بدأت في مكان ما بعيد عن الشاطئ تشعر بوجودها قبل ان تبلغ الشاطئ بفترة طويلة . ان الحيوانات البحرية تستطيع التقاط هذه الاصوات ، بخلاف الانسان . وهي ، لهذا السبب ، « تشعر سلفا » بالعاصفة وتذهب الى مكان امين . ان « العقلانية » هنا تقوم على اسباب طبيعية واقعية . فليس من شيء هنا ايضا فوق الطبيعة . يتضح مما سبق ان العلم وحده هو القادر على تفسير حقائق العقلانية .

مــا الذي يفسر ، مثلا ، العقلانية في الطبيعة الحية ؟ لقد برهن داروين ان هذه العقلانية تتم بطريق طبيعي . ففي النضال من اجل التكيف الافضل لظروف الحيــاة او في الصراع من اجل البقــاء ، والامران سيــان ، لا بد من بقــاء الاكمل ، اي الذي يتكيف بصورة افضل لظروف البيئة الخارجية . وعلى اساس قوانين الطبيعة والاسباب الطبيعية ، تكوّنت في مجرى التطور التدرجي على مــر القــرون العديدة ، تلك العقلانيــة ، ذلك الانسجام ، في الطبيعة الحية ، الذي يذهلنا بهذه الصورة الآن .

وهكذا ، تعرفنا على مقولتي السبب والنتيجة (العلة والمعلول) واهميتهما .

غير انــه ينبغي ان يؤخذ بعين الاعتبــار ان الاسباب مختلفة . فبعضها تسبب ظاهرات ضرورية ، واخرى تسبب ظاهرات صدفية .

الضرورة والصدفة

ذات مرة اخذ العالم الفرنسي انطوان بكيريل (١٨٥٢–١٩٠٨) من الفيزيائي المشهور بيير كوري (١٨٥٩–١٩٠٦) كميــة صغيرة من الراديوم لكي

يعرضه على طلبته في المحاضرة . وقد وضع الانبوب الذي يحتوي على الراديوم في جيب صدريته . بعد بضعة ايام ، شاهد بكيريل على جلده مقابل جيب الصدرية احمرارا يشبه شكل الانبوب المليء بالراديوم. ان هذه الحادثة العرضية كانت سببا لدراسة تأثير اشعة الراديوم على عضوية الانسان . فهل ينجم من هذا انه لو لم تكن هذه الصدفة لما عرف الناس اي شيء عن المرض الاشعاعي ، عن قدرة الراديوم على الفتك ؟ هل الامر كذلك ؟

هنالك رأيان . يقول البعض ان كل شيء في العالم ضروري وليس هناك اي شيء صدفي . امـــا البعض الآخر ، فيقول ، على العكس ، ان كل شيء في العالم صدفي .

من منهما على حق ؟

ان هؤلاء واولئك غير محقين لانهم يفصلون الصدفة والضرورة احداهما عن الاخرى . مثلا . علام يقوم اعتقادنا بان الشمس ستشرق بعد الليل ويحل الصبح ؟ ان هذا الاعتقاد يقوم على المراقبة العملية ، على تجربة قرون وقرون ، على معرفة قوانين الطبيعة . فتناوب النهار والليل يسببه دوران الارض حول

محورها ، وتناوب اوقات السنة يسببه دوران الارض حول الشمس .

ان المقولة الفلسفية ، الضرورة ، تدل على هذه الصلة المتبادلة الدائمة بين الظاهرات . **فالضرورة ليست ما قد يكون او قد لا يكون ، بل هي ما لا بدّ ان يكون بكل تأكيد ، لانه ناتج عن اسباب عميقة ، ولذا ينبثق من الطبيعة الداخلية نفسها للظاهرات .**

ولكن هل توجد الصدف ؟ هنا يمكن البدء من سرد مثل . وقع انسان في كارثة سيارة ، فاودت الصدفة السخيفة بحياة انسان . لماذا نسمي مثل هذه الظاهرات صدفا ؟

يمكن للحادثة الصدفية ان تقع ، ولكنها قد لا تقع ايضا . فهل ان حياة الانسان مقضي عليها ، يا ترى ، بان تنتهي حتما بكارثة سيارة ؟ كلا بالطبع . ان مثل هذه الحوادث لا يجوز تسميتها بالحوادث الضرورية . انها صدف . ذلك لان المجرى الداخلي لتطور هذه الظاهرة باكمله لم يؤد الى ما حدث ، الى ما قد تم .

وعندما شقت البلاد السوفييتية لاول مرة في التاريخ الطريق الى الفضاء الكوني في تشرين الاول

(اكتوبر) عام ١٩٥٧ باطلاقها القمر الصناعي الاول ، اخذ بعض الدعاة البرجوازيين في الغرب يزعم بان هذا نتيجة نجاح صدفي ووحيد . فهل الامر كذلك في الواقع ؟ كلا بالطبع . فقد كان هذا النجاح كامنا في النظام الاشتراكي نفسه ، في ذلك الاهتمام الذي يعار في بلدان الاشتراكية لتطوير العلم والتكنيك .

ان طيران القمـــر الصناعي يشهد على نضوج التكنيك السوفييتي ، على المنجزات الكبرى التي احرزها العلم السوفييتي في فروع حاسمة مثل الرياضيـات والفيزياء والكيمياء والتعدين ، على النظام التقدمي للتعليم في الاتحاد السوفييتي . فاي صدفة هي هذه ؟ ان الحادثة الصدفية هي كذلك لانهـــا لا تنبثق من طبيعة العملية الجارية المعنية . اما القمر الاصطناعي ، فانه نتيجة مجمل تاريخ تطور الاتحاد السوفييتي .

وبالتالي ، لاجل الاجابة على السؤال التالي : هل هذه الظاهرة صدفة ام ضرورة ، ينبغي ايضاح ما اذا كانت قد تولدت عن اسباب داخلية ام خارجية .

هل هو صدفي ام ضروري ، مثلا ، هلاك بستان فاكهة بسبب الاعصار ؟ للاعصار ، بالطبع ، اسبابه . ولكن هل كان من شأنه ان يؤدي حتمـــا الى هلاك

البستان ؟ كلا ، واليكم لماذا . لا يحدث الاعصار بلا اسباب . غير ان هذه الاسباب كانت بالنسبة لهذا البستان خارجية ، عابرة ، غير منبثقة من الظروف الجوهرية لنمو البستان . لذا كانت الحادثة نفسها صدفية . ان هلاك البستان لم يكن اكيدا على الاطلاق . وفعل الاعصار ازاء هذا البستان هو صدفي ، رغم ان مثل هذه الصدف كثيرا ما تحدث .

يتضح مما قيل اعلاه ان الصدفة والضرورة متضادتان احداهما للاخرى . ولكن هل ينبغي ان نستنتج من هذا أنه ما من جامع يجمع الصدفة والضرورة ؟

يحاكم الميتافيزيائيون على الوجه التالي تقريبا : ان ما هو ضروري لا يمكن ان يكون صدفيا ، وما هو صدفة لا يمكن ان يكون ضروريا . ولكن هل الامر كذلك ؟ ان بين الصدفة والضرورة الكثير المشترك في الحياة ، في الواقع ، انهما وثيقتا الارتباط فيما بينهما . ويستحيل فصلهما احداهما عن الاخرى . وينبغي على المرء ان يتمكن دائما من ان يرى وراء الصدفة الضرورة ، السنّة التي تنمو الصدفة على اساسها .

يتضح مما تقدم انه لا توجد في الطبيعة والمجتمع ظاهرات ضرورية «فقط» او ظاهرات صدفية «فقط» . ان هذه وتلك توجد معا في الواقع الحقيقي ، متداخلة بعضها ببعض . فالضرورة تتجلى دائما في شكل صدفة . وليس من الصدفة ان شجر المانجو ينمو في المناخ الحار . اما ان لكل شجرة هذا القدر من الاوراق ولكل من هذه الاوراق حجمها وشكلها ، فانه قد توقف على كثرة من الظاهرات الصدفية ، بما في ذلك عدد قطرات المطر التي سقطت عليها والرياح التي هبت عليها وما الى ذلك . نستخلص من هذا ان الصدفة والضرورة هنا متشابكتان .

يعتبر الميتافيزيائيون ان للظاهرة الضرورية سببها ؛ اما الصدفة ، فلا سبب لها برأيهم . ولكن ما من ظاهرة يمكنها ان تنشأ بدون سبب . وللظاهرة الصدفية سببها ايضا . فما هو الفرق اذن ؟

اليكم الفرق . يظهر السبب في الظاهرة الضرورية كشيء ما داخلي . اما بالنسبة للظاهرة الصدفية فانه شيء ما خارجي حيالها .

مثلا . ان نقص المؤن بالنسبة للسكان في البلدان المتخلفة مرتبط بالتطور الاقتصادي الضعيف

في هذه البلدان الموروث عن الماضي الاستعماري . وهذا هو سبب داخلي لنقص المؤن في هذه البلدان . غير ان كمية المؤن قد تتقلص تحت تأثير اسباب خارجية مثل الفيضان وانفجار البراكين والاعصار الخ ..

وهكذا يعترف الفهم الديالكتيكي للصدفة ، بان لكل شيء في العالم سببه ويتطلب في الوقت نفسه التمييز بين الاسباب الصدفية ، اي التي يمكن ايضا ألا تكون ، والاسباب الضرورية ، اي المنبثقة من العمليات الداخلية لتطور الظاهرات الجارية . ولذا ، ليست كل ظاهرة مشترطة سببيا تنبثق بالضرورة كما يفكر الميتافيزيائيون . ان المادية الديالكتيكية ، اذ تعترف بان كل شيء في العالم مشترط سببيا ، تقر كذلك بالصدفة . ويعير العلم الاهتمام الاساسي لايضاح ضرورة ، سنّة الظاهرات المتطورة لانه مدعو بالضبط للكشف عن اتجاه تطورها .

لقد ناضل العالم السوفييتي المشهور ايفان فلاديميروفيتش ميتشورين (١٨٥٥–١٩٣٥) نضالا عنيفا ضد العلماء الذين يركنون الى الصدف وليس الى دراسة قوانين تطور الطبيعة . وقد قال باننا لا

نستطيع انتظار الهبات من الطبيعة وان مهمة العلم هي انتزاع هذه الهبات منها .

ان كل جيولوجي يعلم انه ما كان بمستطاع العلماء اجراء اكتشافات كثيرة لو انهم قاموا بتنقيباتهم خبط عشواء . فمن اجل التنقيبـــات الجيولوجية الناجحة ، من الضروري دراسة قوانين تركيب قشرة الارض والاسترشاد بهذه القوانين في النشاط العملي . وعندها لن نعتمد على «الصدفة السعيدة» وسنحرز النجاحـــات بكل تأكيد في العثور على المطمورات النافعة .

وطالما ان الظاهرات الصدفية قد تقع وقد لا تقع ، فهل يمكننا دراستها ؟ ما هي القوانين التي تخضع لها الظاهرات الصدفية ؟ بغية الاجابة على هذين السؤالين ، نقوم في البدء بتجربة صغيرة . لنقذف قطعة من النقود المعدنية الى فوق . انها ستسقط اما على الوجه واما على الجانب المعاكس .

سلفا لا يجوز معرفة الجانب الذي ستسقط عليه قطعـة العملة : على الوجه ام على الجانب الآخر . ولكن ، لو قذفنا القطعة خمسة آلاف مرة ، مثلا ، فاننا سنجد انها سقطت قرابة ٢٥٠٠ مرة على الوجه

وقرابة ٢٥٠٠ مرة على الجانب المعاكس . وهكذا يتبيّن انه في هذا المجال توجد سنّة . انه قانون للظاهرات الصدفية .

لنأخذ مثلا آخر . من يولد في العائلة ، ولد ام بنت ؟ يبدو هذا الامر للوهلة الاولى غير خاضع لاية سنّة كانت . ففي بعض العائلات قد يولد ابناء فقط ، وفي البعض الآخر بنات فقط . غير ان المراقبة التي اجريت لعدد كبير من العائلات قد كشفت سنّة معينة : ان ولادة الابناء والبنات خاضعة للتناسب التالي : يولد ١٠٥ ابناء مقابل ١٠٠ بنت .

علام تدل هذه الحقائق ؟ انها تدل على ان نظام وسنّة الظاهرات الصدفية يبقيان غير ملحوظين لدى عدد قليل من المشاهدات ، ولكنهما يظهران على سطح الواقع مع توفر عدد كبير جدا من الحقائق . وقد اطلق على هذه السنن اسم **السنن الاحصائية** ، اي سنن صنف كامل من الظاهرات الصدفية .

ان هذا يعني ان بمستطاعنا دراسة الظاهرات الصدفية وايجاد قانون وجودها . فالفيزياء المعاصرة بدراستها حركة الالكترونات وغيرها من الجسيمات

في الذرة ، قد اكتشفت بالضبط ان حركة الجسيمات المجهرية تخضع للسنن الاحصائية .

وهكذا نرى ان العلم المعاصر لا يدرس الظاهرات الضرورية وحسب ، بل الظاهرات الصدفية كذلك . ان لدراسة الظاهرات الصدفية اهمية عملية ايضا .

كثيرة هي الصدف التي تحمل الخير للانسان ، ولكن هناك صدف تحمل معها اللوعة والآلام : انها الرياح التي تهب من الصحارى ، والجفاف ، والفيضانات ، وغيرها من النكبات الطبيعية . الا ان العلم يسعى الى الحد من مفعولها ، على اساس دراسة ضرورة سننها . فكيف يمكن الحد من مفعول ما لا يعتمد على الانسان ؟ ان القضاء على الصدف هو بالفعل امر هيهات ان يتسنى تحقيقه دوما . اما القضاء على افعالها غير المرغوب فيها ، فهو امر ممكن وضروري . مثلا ، يستحيل لغاية الآن القضاء على الصدف المرتبطة بتقلبات الطقس التي قد تؤدي الى خسائر في المحاصيل او حتى الى ابادة المزروعات . اما الحد من مفعول الصدف غير المرغوب فيها ، فهو امر ممكن انطلاقا من ان هذا المفعول رهن بالظروف التي يتجلى فيها . لذا من الضروري انشاء ظروف من

شأنها ان تقلل الى الحد الادنى من مفعول الصدف المهلك او ان تزيله كليا .

وهذا هام على الاخص بالنسبة للاقتصاد الزراعي الذي يعتمد على تقلبات الطقس اكثر مما تعتمد الصناعة . ان ري الحقول وتسميدها واستخدام الطرق الزراعية ، كل هذا يحمي الزراعة من الصدف المضرة .

وهكذا ، فان **الانسان غير عاجز امام مفعول الصدف غير المرغوب فيها . انه يملك امكانيات لشل قوتها المدمرة او اقتصارها الى الحد الادنى .**

كذلك ترتبط قضية الحرية بمقولة الضرورة ارتباطا وثيقا .

الضرورة والحرية

يثبت التاريخ ان انتصار الاشتراكية على الرأسمالية هو ضرورة تاريخية . وانه لضروري تاريخيا في الظروف الراهنة التعايش السلمي بين النظامين الاشتراكي والرأسمالي .

فهل من فائدة اذن في بذل الجهود حتى يرى النور ما هو آت حتما نتيجة للضرورة الطبيعية التاريخية ؟

لقد دار الجدال حول هذه المسألة على مر القرون بين من يسمون بالقدريين (الذين يعتقدون بالقضاء والقدر) والاراديين (انصار المذهب الارادي).

ان الاراديين ينسبون للارادة البشرية الدور الحاسم في تطور العالم (من هنا جاءت تسمية «الارادية») . انهم لا يأخذون بالحسبان الظروف الموضوعية ، القوانين الموضوعية ، الضرورة التاريخية . ويفهمون الحريــــة على انهـــا عدم تقييد الارادة البشريــة . غير ان هذا الـــراي خاطئ . فبدون اسباب ، ما من شيء في العالم ينشأ ويفعل فعله . ولذا لا تستطيع الارادة البشرية ايضا ألا تعتمد على شيء وان تفعل كما يطيب لها .

وعلى النقيض هو رأي القدريين . انهم يؤمنون بالقدر الحتمي ، وايمانهم هذا يقوم على التصور بان كل شيء في العالم قد تقرر سلفا وان الانسان عاجز عن تغيير شيء (من هنا جاءت تسمية «القدرية») .

ان محاكمـــات القدريين تقضي على النـــاس بالخمول . فلو اخذ الناس برأى القدريين بدأب وحتى النهاية ، لترتب عليهم الجلوس مكتوفي الايدي . وهذا يولّد الشعور بالقضاء والقدر . لذا تقوض مثل

هذه النظرية ثقة الجماهير الكادحة بقواها وبامكانية تغيير الانظمة الرجعية الاستغلالية .

وفي وسع المرء ان يرى الى اي درجة يضر الموقف القدري من ظاهرات العالم استنادا الى المثل التالي . ان بعض الناس في الغرب يودون ان «يبرهنوا» على الحتمية القدرية للحروب وسباق التسلح . وهم يرون ان الانسان عاجز امامها ، بينما الامر يختلف في الواقع ، اذ ان سياسة النضال في سبيل صيانة السلم ، التي ينتهجها الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الاخرى والدول الفتية المستقلة ، قادرة على درء نشوب حرب عالمية جديدة .

ولذا كانت كلا وجهتي النظر - الارادية والقدرية - خاطئة . انهما تعمدان الى حل المسألة بطريقة ميتافيزيائية ، فتعترفان اما بالحرية واما بالضرورة . اما ان كل شيء يتم بحكم النشاط البشري الحر وعندها لا يمكن ان توجد الضرورة ، اما ان كل شيء يتم بحكم الضرورة ، السنّة ، وعندها لا يمكن للحرية ان توجد . ان الحرية لا تتفق مع الضرورة - هذا هو الاساس الذي يقوم عليه مثل هذا الرأي .

ما هو اذن الحل الصحيح للمسألة ؟ في الحياة اليومية ، كثيرا ما يفهم بكلمة «حرية» الشيء الذي لا تضيق عليه قيود . ولذا يفكرون احيانا بان السنّة ، الضرورة تنفي الحرية : طالما هناك ضرورة ، سنّة ، فان ثمة «قيودا» ، «عراقيل» ، وهذا يعني انه لا يمكن للحرية ان تكون . وهكذا يعني حل مشكلة الحرية حل المسألة التالية : هل يمكن ان يكون المرء حرا وهو يخضع لقوانين الضرورة الطبيعية .

لنبدأ من هذا المثل . ان ارتياد الفضاء الكوني مرتبط بتخطي قانون الجاذبية العالمية التي وكأنها «تربط» الانسان بالارض . ولكن ، هل من الممكن عمل هذا «دون مراعاة» هذا القانون ، اي ، رغما عنه ، اذا جاز القول ؟ طبعا لا .

فمن اجل ان تخرج السفينة الكونية الى المدار ، عليها ان تطير بسرعة تكون فيها قوتها المركزية الطاردة اكبر من قوة جاذبية الارض (وهذا يحدث مع سرعة قدرها اكثر من ٨ كيلومترات في الثانية) . لقد تسنى للعلماء ارسال سفينة الى الفضاء الكوني لا

على الرغم من قانون الجاذبية العامة بل على اساس دراسة مفعوله دراسة عميقة .

وعندما ارسل العلماء السوفييتيون صاروخا الى القمر ، فانهم قد استندوا بالطبع الى قانون الجاذبية العامـــة . فقد زود الصاروخ بسرعة محددة بدقة تمكن بفضلها من تخطي جاذبية الارض . وبعد ذلك ، ارغمته قوة جاذبية القمر على «الاقمار» اي على الهبوط على القمر . ان هذا المثل يبين بصورة قاطعة مقدار خطأ الذين يزعمون باننا نفقد حريتنا فيما اذا خضعنا لقوانين الضرورة ، ويبحثون عن طرق للتهرب من هذه القوانين ، للتهرب من «الضرورة التي تضيق على الحرية» . ان هؤلاء النـــاس يفهمون الحرية على انها تحرر من القوانين . ولكن هذا غير صحيح .

فأين تتجلى اذن الحرية الحقيقية – أهي حيث «لا يعترفون» باية قوانين ، ام هي حيث تعرف هذه القوانين ويستفاد منها ؟ الجواب واضح : هناك حيث تعرف هذه القوانين ويستفاد منها . لقد عبر لينين عن هذه الفكرة على الوجه التالي : الضرورة عمياء طالما هي لم تعرف . ولكن اذا عرفت الضرورة ،

اذا عرف القانون ، واذا اخضعنا فعله لمصالحنا ، فاننا اسياد الطبيعة . وقد كتب انجلس في مؤلفه «ضد دوهرينغ» يقول : «لا تكمن الحرية في الاستقلال الموهوم عن قوانين الطبيعة ، وانما في معرفة هذه القوانين وفي الامكانية القائمة على هذه المعرفة لارغام قوانين الطبيعة بصورة منهاجية على الفعل من اجل اهداف معينة» .

وهذا القول يصح بالنسبة لظاهرات الطبيعة والحياة الاجتماعية على السواء . فقبل ظهور الماركسية ، لم تكن قوانين التطور الاجتماعي معروفة . وقد بقي الناس عبيدا للضرورة التاريخية . اما الماركسية ، فقد كشفت عن هذه القوانين وعرفتها . ولقد كانت تلك اول خطوة لكي يصبح الكادحون المتسلحون بهذه القوانين صانعين احرارا لمصيرهم ، لكي يبنوا حياتهم على نمط جديد طبقا للضرورة التاريخية .

ان حرية الانسان تكمن في معرفة قوانين تطور الطبيعة والمجتمع ، في استخدام هذه القوانين بمهارة في النشاط العملي . ولا يمكن لحرية الانسان ان تتعدى حدود الضرورة .

يرى الفلاسفة البرجوازيون المعاصرون ان الانسان حر عندما يكون قادرا على اختيار اي حل كان لنشاطه ، دون مراعاة اي شيء كان .

وحقيقة الامر انه لا وجود لمثل هذه الحرية . وهذا ما يتضح بصورة جلية من قصة الجدال الذي دار بين دوّارة الريح وعقرب البوصلة المغنطيسي .

تتباهى دوّارة الريح قائلة :

– انني حرة ، فانا ادور في مختلف الجهات حيثما يطيب لي ، اليوم بصورة وغدا باخرى . اما انت فكيفما ادرناك ، تتجه في اتجاه واحد فقط .

اجاب العقرب المغنطيسي :

– اي حرية لديك ! انك لا تتأرجحين بارادتك هنا وهناك . فالرياح هي التي تتلاعب بك . لذا أنت تدورين . قصيرة هي حريتك – من ريح الى ريح . ان اقرب ريح تؤثر فيك . اما انا ، فلا اعتمد على تقلبات الطقس واحافظ دائما على اتجاه واحد . وبموجب هذا الاتجاه يجدون في كل مكان الطريق الصحيح .

اذا ما أمعن المرء الفكر فيما قيل ، لا يصعب عليه الاقتناع بانه لا يجوز فهم الحرية في حال من

الاحوال على انها اختيار المرء اي حل كان لنشاطه ، دون مراعاة اي شيء كان .

يعتقد بعضهم في البلاد الرأسمالية بانه قد اختار نمط التفكير « بحرية » تامة ، وان رغبته وعاداته نتيجة « الحرية الشخصية » بينا هو في واقع الامر عبد الظروف التي يعيش فيها ، عبد الغرائز الناتجة عن الملكية الخاصة والتي يربيها نمط الحياة برمته . فليس هنا اي ظل « للحرية الشخصية » ، بالمعنى الذي يؤولها به العلماء البرجوازيون . ان كل شيء هنا خاضع للضرورة . وهذه الضرورة تظهر في ظروف الرأسمالية بشكل قوى اجتماعية عمياء يمكن مقارنتها بالرياح العاصفة .

اما الحرية التي تستند الى معرفة الضرورة في ظروف الاشتراكية فهي شيء آخر . فالقوانين لم تعد تفعل فعلها هنا كقوى اجتماعية عمياء ، لأن نشاط الناس يقوم على المعرفة العميقة لسنن التطور الاجتماعي .

يزعم اعداء الماركسية قائلين : بما ان الماركسية تنظر الى تطور العالم بوصفه نتيجة مفعول القوانين الموضوعية المستقلة عن ارادة الناس ووعيهم ، فانها

9*

تؤدي لا محالة الى القدرية ، الى انكار النشاط الحر الفعال عند الناس . انهم يريدون بهذا القول ان الماركسيين يفهمون تطور العالم بوصفه عملية قدرية مقررة سلفا . واذا تحدث الماركسيون ، مع ذلك ، عن النشاط البشري الفعال الحر ، فانهم يدخلون هنا في تناقض مع مذهبهم .

يقول نقاد الماركسية : اذا كان حلول الاشتراكية امرا حتميا ، فلماذا النضال في سبيلها ؟ ان ما ينبغي هو مجرد انتظار حلولها . ما الداعي الى تنظيم الاحزاب وتهيئة انتصار الاشتراكية ؟ فالمعلوم انه ما من احد يقوم بتأسيس الاحزاب من اجل تحقيق كسوف الشمس . هكذا يصرح هؤلاء نقاد الماركسية .

ان الماركسية-اللينينية لا تمت باي صلة الى مثل هذا المفهوم المبتذل . انهـــا تعترف بضرورة انتصار الاشتراكية ، ولكن لا بمعنى ان هذا الانتصار يتحقق من تلقاء ذاته (اوتوماتيكيا) .

فالقضية هي ان ضرورة الظاهـرات الطبيعيــة تختلف اختلافــا جوهريـــا عن ضرورة الظاهرات الاجتماعية . ان الضرورة في التطور الاجتماعي تتحقق بصورة تختلف عن تناوب النهار والليل او مجيء

الربيع والصيف . فمثل هذه الظاهرات الطبيعية تجرى بدون اشتراك الانسان .

اما في المجتمع ، فان كل شيء ناتج عن عمل يدي الانسان ، عن نشاطه العملي الانتاجي الثوري . ولكن هل يعني هذا ان الضرورة الاجتماعيـة ، ان قوانين التطور الاجتماعي هي من صنع الناس ؟

طبعا ، لا . فالضرورة الاجتماعية موضوعية بقدر ما هي عليه الضرورة في الطبيعة . غير ان هناك فرقا جوهريا ، كما سبق ورأينا . ففي الطبيعة لا تفترض الضرورة نشاط النـاس . امـا في الحيـاة الاجتماعية ، فان نشاط الناس يدخل في عداد الظروف التي بدونها لا تتحقق الضرورة ولا تتجلى . واذا لم يفعل الناس او فعلوا بدون دأب ومثابرة في السعي الى الهدف المنشود فان هذا يعني ان جهودهم بالذات لا تكفي في الوقت المعني لبلوغ الهدف .

هل من الممكن ، مثلا ، تجنب الحرب بدون النضال النشيط ضدها من جانب الجماهير الشعبية الواسعة ؟ كلا بالطبع . فاذا كانت قوى السلم خاملة لا تقوم بعمل ، فان قوى الحرب السوداء ستزيد من نشاطها بكل تأكيد ، وسيكون التعايش السلمي

مهددا بالخطر . ولذا يتوقف على الشعوب نفسها ، على عزمهـا وافعالهـا النشيطة ، اقـرار السلم على الارض او زج البشريـة في كارثة حرب عالميـة جديدة .

ان التسليم بان الحرب قضاء وقدر وامر محتم لا مناص منه من شأنه اضعاف نشاط الشعوب في النضال من اجل السلم وتثبيط عزيمة قوى السلم . امـا الادراك ان الحرب ليست قضاء وقدرا وامرا لا مناص منه فانه ، على العكس ، يساعد على توسيع صفوف انصار السلم ويلهم المناضلين في سبيل السلم .

وهكذا ، لا تنفي الضرورة التاريخية الموقف النشيط من الاحداث الدائرة في العالم ، بل ، بالعكس ، تفترضه . ان الماركسية تعير اهمية هائلة لنشاط الناس الفعال الحر . وهذا النشاط يسمى كذلك العامل الذاتي ، اي القوى التي تعتمد على الذوات ، على الناس ومعارفهم ونشاطهم الفعال ومقدرتهم على تنظيم الامور .

ان دور العامل الذاتي ، دور النشاط الحر الفعال الذي يقوم به الشعب يرتفع بصورة ملحوظة في فترة

بناء الاشتراكية والشيوعية . ولكن نشاط النـــاس الفعال هذا يقوم هو نفسه على الظروف الموضوعية وينمو منها .

لقد شوه الفلاسفة وعلماء الاجتماع البرجوازيون مفهوم الحريـــة . فهم يقصرون المسألة كلهـــا على بلوغ «الحرية المثلى للروح». انهم يحاكمون قائلين : كن عبدا ومكبلا بالقيود ، ولكن ان كنت تعتبر ان وضعك لا يضيق عليك روحيا ، فانك حر .

ان الجميع احرار في المجتمع البرجوازي ، على حد زعمهم . فما من احد يجبر العامل على العمل ، وليس الرأسمالي مجبرا على تقديم العمل له . انه بمستطـــاع العامل ان يذهب الى الرأسمـــالي ولكن بمستطاعه ايضا ألا يذهب ، انه مخيـّر . لا بل ان ايديولوجيي الامبريالية قد اخترعوا لبلدان الرأسمالية اصطلاحا خاصا ، هو اصطلاح «العالم الحر» . ولكن لننظر ، هل هو حر في واقع الامر ما يسمى بالعالم الحر ؟

لكي يكون الانسان حرا ، يجب ان يكون سيدا كذلك على ظروف الحياة الاجتماعية . فهل يمكنه

تحقيق هذا في المجتمع الرأسمالي القائم على الاستغلال والظلم ؟

يبين التاريخ ان الحرية في مجتمع يوجد فيه استغلال الانسان للانسان والظلم القومي والاستعماري هي وهم ، وخداع للشعب . فلا حرية للشغيلة حيث توجد الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ونتيجتها – استغلال الانسان للانسان ، ذلك لان حرية الشعب في هذه الظروف لا تقوم على اساس موضوعي واقعي . انها لا تتسم بالنسبة له الا باهمية شكلية فقط . فالشعب لا يستطيع الاستفادة منها . ولا يتمتع بالحرية الا المستغِلون .

ان الحرية التي لا تقوم على قاعدة مادية ، مجرد الحرية ، الحرية كفكرة ، تشبه زهرة بدون جذور وتربة . فمهما كانت رائعة الجمال ، فانها سرعان ما تذبل بكل تأكيد وتجف . وكما يعلّم لينين ، لا يمكن ان تقوم حرية واقعية فعلية في مجتمع قائم على سلطة النقود ، وتعاني فيه الجماهير الكادحة من البؤس وتحيا فيه حفنة من الاغنياء حياة الكسل والطفيلية .

ان الشغيلة لا يكسبون الحرية السياسية والاجتماعية الا عندما يأخذون السلطة في ايديهم ويبنون مجتمعا جديدا خاليا من المستغلين والظالمين .

ان الانسان لا يشعر بنفسه حرا الا اذا توفر لديه الاساس المادي لتحقيق اهدافه ومساعيه . والمجتمع الاشتراكي هو الذي يعطي هذا الاساس لاناس العمل . لهذا بالذات اشار انجلس الى ان **الاشتراكية هي قفزة من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية** . ففي ظروف الاشتراكية فقط ، يتمكن الناس من وضع مجرى التطور الاجتماعي تحت اشرافهم ، ومن التصرف بحرية بمصيرهم .

ان التجربة التاريخية لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وغيره من البلدان قد اثبتت استنتاج انجلس هذا . ففي ظل الاشتراكية يتحرر الانسان من خوف فقدان العمل ، ومن عدم الثقة بالغد ، ومن الاستغلال والاضطهاد القومي . وهذا ما تحقق في البلدان الاشتراكية . ولكن تقدم البشرية في طريق تحررها لا يتوقف عند هذا . فان بناء المجتمع الشيوعي سيكون اعلى درجة لتحرر الانسان من قوى الطبيعة العفوية . وستتكون جميع الظروف

من اجل العمل الخلاق الحر ، ومن اجل تطور جميع كفاءات الانسان ومواهبه . وبهذا سيجري تخطي آخر حاجز في طريق البشرية الى ملكوت الحرية حقا .

المحتوى والشكل

ان لكل شيء وظاهرة خصائص كيفية معينة ، وسمات جوهرية ، يكوّن مجملها محتوى هذا الشيء ، مضمونه . مثلا ، ان محتوى الكتاب هو ما يصوّر فيه من احداث واناس وافكار . اما الشكل ، فهو اللغة والصور الفنية والاوصاف التي يستخدمها المؤلف من اجل ان يعبر عن المحتوى على اكمل وجه .

وهكذا ترون انه لا بدّ للمحتوى ان يرتدي شكلا ، ان صح القول . فبدون الشكل المطابق ، لا وجود له ويستحيل ان يوجد . وهكذا ليس لكل شيء ولكل ظاهرة محتوى وحسب ، بل شكل كذلك . ان الشكل هو تنظيم ، تركيب المحتوى الذي يجعل وجود المحتوى ممكنا .

نستخلص من هذا ان الشكل والمحتوى يوجدان في وحدة . انهما في كل شيء وكل ظاهرة مترابطان ارتباطا وثيقا دائما . وهنا يبرز سؤال : ما هو الدور الذي تلعبه كل مقولة من هاتين المقولتين ؟ اي منهما هو الموجه والمحدد في هذه الوحدة ؟

لا يصعب الاقتناع في ان شكل الشيء او الظاهرة يعتمد على المحتوى . ويتضح هذا استنادا الى المثل التالي : ان اشكال تعاون الفلاحين لا تتحدد اعتباطا ، بل يبعثها الى الحياة مستوى تطور الانتاج الزراعي وعليها ان تطابقه . ونظرا لهذا ، تنشأ في عدد من البلدان المتحررة اشكال معينة لتعاون الفلاحين : اتحادات العون المتبادل ، تعاونيات التموين والتصريف ، الخ .. وهذا يعني ان المحتوى يحدّد الشكل المناسب .

ان تبعيـــة الشكل للمحتـوى لا تعني أن هذا المحتوى المعيّن لا يستطيع ان يبعث للحياة الا شكلا واحدا وحيدا فقط . يتضح هذا بصورة حسنة على ضوء امثلة من الحياة الاجتماعية حيث الشكل ينجم من محتوى مرتبط دائما بظروف تاريخية

ملموسة معينة . ولذا لا يمكن ان يكون فقط شكل واحد وحيد جامد .

ان الثورات الوطنية في المستعمرات ، بوصفها محتوى انقلاب اجتماعي ، تتحقق باشكال مختلفة . فهي قد تكون سلمية وغير سلمية . وفي مجرى الثورة ، قد تستخدم بعض الاشكال القديمة للحكم وذلك لوضعها في خدمة الشعب وسكب محتوى جديد فيها .

ولكن ، اذا كان الشكل خاضعا للمحتوى ، أفلا يعني هذا ان الشكل لا يلعب اي دور كان ؟ كلا ، لا يجوز التقليل من اهمية الشكل . فبالرغم من تبعيته للمحتوى ، الا انه يؤثر فيه تأثيرا فعالا . لنأخذ على الاقل هذا المثل : يلقي الاستاذ محاضرة : المواد التي جمعها كبيرة والوقائع طريفة . ولكن شكل العرض غير حي وغير ممتع . انــه يعرض المواد بصورة ضعيفة وجافة . فهل ينعكس مثل هذا الشكل على المحتوى ؟ اجل ، ينعكس بدون جدال : ان المحتوى يصل بصعوبة الى المستمعين . يقوم استاذ آخر بعرض الوقائع نفسها بصورة حية ممتعة وساطعة . ان النتيجة الحاصلة تختلف تمام

الاختلاف . فقد استوعب المستمعون كل شيء بصورة جيدة ، وبلغ المحاضر الهدف .

وهكذا ، ليس المحتوى فقط يؤثر في الشكل ، بل ان الشكل ، بالعكس ، يؤثر ايضا في المحتوى . مع العلم ان هذا التأثير قد يكون من نوع مزدوج . فاذا كان الشكل يطابق المحتوى فانه يساعد على تطويره . اما اذا كان الشكل لا يطابق المحتوى فانه يعيقه ويعرقل تطوره . الا ان دوره فعال ابدا ؛ انه يؤثر في المحتوى فيساعد على تطوره او يعرقله .

يتضح من الامثلة الواردة انه لا يجوز في النشاط العملي ان ننسب الدور الحاسم الى المحتوى فقط ، متجاهلين فعالية الشكل . ينبغي اعتبار التأثير المعاكس للشكل ايضا . مثلا ، لا يجب ان تكون المحاضرة حسنة من حيث المحتوى وحسب ، بل عليها ان تكون ساطعة وطريفة من حيث الشكل ايضا . وهذا يعني ان الشكل يحفز المحتوى ويساعده على التطور .

ولكن كيف يمكن معرفة ان الشكل يعرقل المحتوى ؟

ليس من الصعب معرفة هذا اذا أخذنا بعين الاعتبار ان كل شيء يوجد في حالة تطور . لذا ،

لا يتوقف المحتوى ابدا عند مستوى واحد ، بل يتطور . والشكل يتطور ايضا . غير انه اكثر ثباتا واقل حركة . وهو يتخلف عن محتواه . ان الشكل والمحتوى ضدان . وعندما يتطور هذا التضاد ويصبح تناقضا بين الشكل والمحتوى ، فان هذا التناقض يتطلب وضع حد له .

ان الاختراع الجديد يولد في بادئ الامر في الشكل القديم . مثلا ، كانت اول سيارة نسخة طبق الاصل من العربة . ولكن يحين الوقت الذي يصبح فيه الشكل القديم عائقا في طريق تطور الكيفيات الجديدة للسيارة ، عائقا لمحتواه الجديد . لقد كان شكل السيارة القديم يعيق زيادة سرعة حركتها الى ان اخذت السيارة الشكل الانسيابي .

وفي الحياة الاجتماعية ، نصطدم ايضا بضرورة حل التناقض الناشئ بين الشكل والمحتوى . مثلا . ان شكل الحكم عن طريق شيوخ القبائل وشيوخ العائلات الكبيرة في عدد من الدول المستقلة ، دخل في تناقض مع مهام بناء الحياة الجديدة . وهذا الامر اقتضى الاستعاضة عن هذا الشكل بشكل آخر : بممثلي الحكومة والحزب وحتى بالهيئات المحلية المنتخبة .

باي اسلوب اذن تحل النزاعات بين الشكل والمحتوى ؟ انها تحل في شتى مجالات الحياة بسبل مختلفة ، سلمية وغير سلمية ، تبعا للظروف والزمان .

ففي ظروف المجتمع الاشتراكي وفي البلدان التي سلكت سبيل التطور اللارأسمالي ، تحل هذه التناقضات عن طريق التحويل التدريجي للاشكال القديمة بمبادرة الحزب والدولة .

ان ضررا كبيرا يلحقه بالقضيــة اولئك الذين يبالغون في دور الشكل ولا يرون المحتوى وراء الشكل . ان هذا يـؤدي الى الشكلية . مثلا . يرسم بعض الرسامين لوحات لا وجود لاي محتوى فيها . يلطخون القماش ببقع مشوشة من الصبغة واذا باللوحة جاهزة . ان هذه هي الشكلية المتناهية في الفن ، ما يسمى بالفن التجريدي ، الفن المجرد من المحتوى . امـــا الفن الحقيقي ، فيتطلب تطابق الشكل الفني الرفيع مع المحتوى العميق تطابقا تاما .

ان الشكلية لا تتجلى في الفن وحسب ، وانما ايضا في الموقف من العمل ومن الناس . فالشكلية تلحق الضرر في كل مكان . والشكلي لا يرى الانسان الحي وحاجاته ومتطلباته . ان الانسان الشكلي في

مجال النشاط العملي هو نفس البيروقراطي الذي يجعل القضية الحية جافة ويقتلها . هذا هو السبب الداعي لضرورة النضال ضد الشكلية .

وهكذا ، درسنا القوانين والمقولات الاساسية في الديالكتيك المادي . اما ما يتعلق بمقولتي الجوهر والظاهرة ، فمن الانسب دراستهمـــا بالارتباط مع نظرية المعرفة . يبرز الآن السؤال التالي : مـا هي الطريقة التي يعرف بها العلم هذه العلاقات والقوانين والجوهر ؟ سنعالج هذه المسألة في الفصل التالي .

الفصل الخامس

نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية

الجوهر والظاهرة

يؤكد لنا العلم والنشاط العملي ، ان للاشياء والمواد الموجودة في العالم جانبين : الجانب الداخلي المخفي عنا ، والجانب الخارجي الذي هو في متناول ادراكنا الحسي . وحينما نتعرف على الاشياء بواسطة اعضاء الحواس ، فاننا في البدء لا ندرك بالحواس الا بعض المظاهر المنفردة لهذه الاشياء ، الا صلتها الخارجية فقط . اي ان الذي يقف امامنا في بادئ الامر هو عالم **الظاهرات** .

غير ان العلم والنشاط البشري ككل لا يستطيعان حصر الامر في مجرد الادراك الحسي ووصف بعض الظاهرات والوقائع والاحداث ، بل يستهدفان ايجاد القوانين الجوهرية الثابتة للظاهرات وتبعيتها السببية وصلتها الداخلية . ان قوانين الطبيعة والمجتمع لا تدرك مباشرة بالحواس ، وهي لا تطابق الظاهرات .

ان كشف التطور القانوني للعمليات يعني معرفة طبيعتها الداخلية ، اي النفاذ الى ما يربط مختلف الظاهرات في كل واحد ، الى ما يؤلف الشيء الاساسي الرئيسي فيها .

فوراء تنوع الظاهرات العديدة يكمن **الجوهر** ، اي صلتها الداخلية ، اساسها وسنّة تطورها .

ففي المجتمع الرأسمالي ، مثلا ، تبدو للعيان ظاهرات مثل الازمات والبطالة واملاق الشغيلة وخراب الفلاحين والاضرابات والمظاهرات ضد ظلم الاحتكارات وما الى ذلك . ووراء هذه الظاهرات يكمن جوهر الرأسمالية ، وهو بالذات ان الرأسمالية هي نظام استغلال واضطهاد .

وهكذا ترون ان **الجوهر تعبير عن الصلة الداخلية للعالم الموضوعي ، وانه اساس تنوع الظاهرات . اما الظاهرات فهي مظهر الجوهر ، الشكل الخارجي لتجليه .**

ولذا ، ليس الجوهر بمثابة شيء ما موجود قبل الظاهرات ومستقل عنها . ان الجوهر والظاهرة يعكسان مختلف جوانب الواقع الواحد نفسه : الجوهر يعكس جوانبه الداخلية والاساسية ؛ اما الظاهرات فتعكس الجوانب الخارجية المباشرة .

ولا يجوز فهم وحدة الجوهر والظاهرة على انهما

يتطابقان مباشرة . فلو كان كل شيء على سطح الظاهرات ، لاصبح من الممكن الكشف عن سنن تطور الطبيعة والمجتمع دفعة واحدة وبصورة مباشرة . ولكن الامر ليس كذلك : فان معرفة الجوهر يقتضي عملا كبيرا ومعقدا يبذله العلماء . ان اكتشاف الجوهر يتطلب دراسة علمية على اساس النشاط العملي .

مثلا . يبدو لنا ان الشمس تدور حول الارض التي تبدو بلا حركة . ولكن هذا التصور يناقض الجوهر الذي اكتشفه العلم والتجربة . ففي الواقع ، تدور الارض حول الشمس .

اما في الحياة الاجتماعية ، فان القوى الرجعية الصائرة الى الزوال تشوه وتموه الجوهر عمدا وقصدا في غالب الاحيان .

مثلا . يعرض الامبرياليون «مساعدتـــ» ـــهم للبلدان المتحررة من النير الاستعماري . ولكنهم تحت ستار المساعدة يسعون الى استعباد البلدان الضعيفة التطور استعبادا اقتصاديا بغية بعث الاستعمار بشكل آخر . ان جوهر الامبريالية يزوّر هنا عن وعي : فهي تبدو في قناع «صديق» للشعوب ، ولا سيما شعوب البلدان الضعيفة التطور .

10*

ان المثاليين يفصلون الجوهر والظاهرة احدهما عن الاخـــرى . والمثل النموذجي على هذا فلسفة عمانوئيل كانط . فهو قد قسم الواقع الى عالم ظاهرات وعالم جواهر . وبرأى كانط انه يستحيل معرفة عالم الجواهر او ، كما اسماها ، «الاشياء بذاتها» . وخلافا لهذا ، تثبت المادية الديالكتيكية امكانية معرفة جوهر الاشياء ، معرفة قوانين تطور العالم .

مـــا أعظم قوة المعـارف . فالانســـان المتسلح بها منيع لا يقهر . ولو كنا لا نعرف ما يدور في العالم ، لما كان بامكاننا ان نعيش ونعمل فيه . ولولا المعرفة لاستحالت علينا منجزات العبقرية البشرية مثل القمر الصناعي والصاروخ الكوني والطاقة الذرية ، ولاستحال ايضا القيام بامور تبدو بسيطة للغاية .

وبرغم هذا يوجد اناس يزعمون بان الانسان عاجز عن الحصول على تصور حقيقي عن العالم ، اي معرفته .

العلم نور ، هكذا يقول الناس منذ القدم . ولكن ليس الجميع يحبون النور . وهذا امر مفهوم . ان انارة العالم بالعقل البشري الجبار تعني رؤية الكثير فيه ومعرفة الكثير عنه والمقدرة على عمل الكثير فيه .

ان هذا بالذات مــا يخشــاه ناشرو الظلام ومضطهدو الشعوب ، كلهم على اختلاف انواعهم ، وذلك لان الانسان المتحرر من العبودية الاجتماعية والسياسية وكل عبودية اخرى يصبح سيد نفسه ويبني حياته مسترشدا بالمعارف . وليس من قبيل الصدفة ان الشعوب التي خلعت نير الاستعمار وطردت الظالمين من فرنسيين وانكليز واميركان وغيرهم ، هبت رأسا لتصفية الامية وانطلقت نحو المعارف . غير ان ثمة اناسا لا يؤمنون بمعارفنا . فمن هم هؤلاء الناس ؟

يزعم بعض الفلاسفة المثاليين بانه لا يمكن معرفة العالم . وقد اطلق على هؤلاء اسم اللاادريين ، انصــــار اللامعرفة (اللاادرية agnosticisme*) . ان

---

* ان لينين في مؤلفه «المادية والمذهب النقدي التجريبي» يعرف هذا الاتجاه في الفلسفة على الوجه التالي : «Agnosis كلمة يونانية : A تعني في اليونانية **لا** ؛ gnosis تعني **دراية** ، معرفة . ان اللاادري يقول : لا أدري ان كان هناك واقع موضوعي تعكسه وتصوره احساساتنا ، انني اعلن ان معرفة هذا غير ممكنة» (**ف . ا . لينين** ، المؤلفات ، الطبعة الروسية ، المجلد ١٤ ، ص ١١٥) .

اللاادرية تنكر امكانية معرفة العالم . والفلسفة البرجوازية المعاصرة تنشر هذا الاتجاه بصورة واسعة .

ما هي الحجج التي يسردها اللاادريون لاثبات وجهات نظرهم وهل لها اساس ؟ معلوم انه لا يمكن ادراك العالم الا بواسطة اعضاء الحواس : النظر ، السمع ، اللمس ، الخ .. ولكن هذه ، كما يقول اللاادريون ، شهود غير ثقات ابدا . كم من مرة خدعتنا اعضاء الحواس . ان ملعقة الشاي في الكأس المملوء بالماء تبدو لنا مكسورة ، معوجة . ويبدو البيت من بعيد اصغر مما هو عن كثب . ونظرا لهذا ، لا يجوز تصديق اعضاء الحواس . هذا هو استنتاج اللاادريين . فهل الامر كذلك في الواقع ؟

لو سلمنا بما يقوله اللاادريون ، لفكرنا ان الانسان لا يقوم بشيء سوى انه يسير وينظر بعجز الى الاشياء المحيطة به . ولكن الامر ليس كذلك في الجوهر . فان الانسان في العالم ليس بمثابة متفرج ، انما هو فاعل وخالق . **ففي العمل ، في التطبيق يحوز الانسان على كل ما هو ممكن وضروري لتدقيق ما تشير اليه اعضاء الحواس وبلوغ جوهر الامر والنفاذ الى اعماق الظاهرات المدروسة** . وفي المثل الذي

اوردناه ، يكفي سحب الملعقة من الماء بغية البرهنة على انها سليمة .

وهكذا ترون ان الذي يحل مسألة امكانية معرفة العالم هو التطبيق ، النشاط العملي ، الحياة . ففي سياق العمل والنشاط الانتاجي ينفذ الانسان الى جوهر العالم المحيط به ويعرفه .

ولكن كيف يحصل الناس على معارفهم عن العالم ؟

درجات المعرفة

تصوروا اننا قد أُرسلنا لدراسة عمل تعاونية . من اين نبدأ بهذه الدراسة ؟ طبعا من جمع الوقائع : كم عدد العاملين في التعاونية ، وكيف تطبق الطرائق الزراعية ، وما هو المحصول الذي جنوه ، وكيف جرى تنظيم العمل ، الخ .. بعد ذلك فقط يمكن الوصول الى استنتاج معين عن حياة وعمل التعاونية .

وهكذا نفعل في اية قضية . ان كل من يعمل لاكتشاف ومعرفة قوانين الطبيعة **يقوم في البدء بتكديس الوقائع** . وهذا يتم بلوغه اما بواسطة التجارب واما بواسطة المشاهدة البسيطة ، ولكن دائما بواسطة

اعضاء الحواس . **وهذه هي الدرجة الاولى للمعرفة** – المعرفة **الحسية** او التأمل الحي .

وعندما يتم تكديس الكمية الكافية من الوقائع ، يأخذ عقلنا بتحليلها ومقارنتها فيما بينها ومقابلتها بعضها ببعض ويصل الى استنتاجات معينة . وهذه هي **الدرجة الثانية للمعرفة : المعرفة العقلية ، المنطقية او التفكير المجرد** . ولكن درجتي المعرفة الاولى والثانية على السواء تتمان على اساس النشاط العملي . فاننا نأخذ الوقائع لتحليلها من التطبيق ، من النشاط العملي ، من الحياة . والحياة ، النشاط العملي ، التطبيق بحاجة ، على العكس ، الى الاستنتاجات التي نحصل عليها من هذه الوقائع . انها ضرورية لنا لكي نحسن ، مثلا ، عمل التعاونية التي قمنا بدراستها ، لكي نرفع مردود المحاصيل الزراعية .

وهكذا **تتألف عملية المعرفة من المعرفة الحسية والمعرفة المنطقية المبنيتين على اساس التطبيق ، النشاط العملي** . كتب لينين يقول : «من التأمل الحي الى التفكير المجرد ومنه الى التطبيق ، هذا هو السبيل الديالكتيكي لمعرفة الحقيقة ، لمعرفة الواقع الموضوعي» .

يعرف تاريخ العلم الحادثة التالية :

ذات مرة نقلوا الى المستشفى مريضة كانت جميع اعضـــاء حواسهـــا الاساسية مشلولة : فقد فقدت حواس النظر والسمع والشم والذوق . لم يبق عندها الا حساسية الجلد على يد واحدة . وكانت هذه الطريق الوحيد الذى كانت بواسطته تصل المعارف عن العالم الى المريضة . ولكن كم كانت هذه المعارف ضئيلة ! لقد كانت المريضة كل الوقت تقريبا في حالة اغماء . علام تدل هذه الواقعة ؟ إنها تدل على ان اعضاء الحواس هي بمثابة الطرق التي بواسطتها تصل المعارف عن العالم المحيط بنا الى العقل البشري . ان تأثير العالم الخارجي عليهـا يستتبع الاحساسات . اننـا لا نستطيع معرفة اي شيء عن العالم المحيط بنا الا عن طريق الاحساسات .

وفي حالة فقدان عضو واحد فقط من اعضاء الحواس ، يستطيع الانسان ان يستعيض عنه جزئيا بالاعضاء الاخرى . ولكن اذا كان الانسان محروما من جميع اعضـــاء الحواس ، فانه يكـون عاجزا عن دراسة الواقع . انه ، بكل بساطة ، لن يتمكن من معرفة اي شيء عن العالم . **الاحساس هو نتيجة تأثير**

اشيـاء العالم الخارجي في اعضاء حواسنـا . ولهذا بالذات ، يعطينا المعرفة الحقيقية الصحيحة عن العالم المحيط بنا .

ولكن ما هو البرهان على ان الاحساسات تعطينا معرفة صحيحة عن العالم ؟ ان الذي يبرهن على هذا هو ، قبل كل شيء ، تطبيقنا ، نشاطنا العملي . فلو ان الاحساسات لم تكن تعطي معارف صحيحة بالاجمال ، لما استطاع الانسان عمليا الاستفادة من اشياء العالم الخارجي . ففي هذه الحالة ، قد تكون مضرة للجسم الاشياء التي تقول عنها حواسه انها مفيدة له ، وبالعكس .

مثلا ، اذا نظر الانسان الى شيء ، فكأن عينه تصوره . واذا كان شيء متحركا ، تظهر على شبكية العين صورة شيء متحرك . واذا كان الشيء ساكنا ، تظهر صورة شيء ساكن . ان العين في هذه الحالة تعكس ، تنسخ ما يدور في العالم . وهكذا تفعل اعضاء الحواس كافة . نستخلص من هذا ان اللاادريين على خطأ في زعمهم ان اعضاء الحواس شهود غير ثقات .

ولكن ، ما العمل اذن مع خداع الحواس الذي لا جدال في انه يحدث احيانا ؟ ان القضية هنا على

الوجه التالي : لو كنا ندرك العالم بواسطة الاحساسات وحدها فقط ، لما عرفنا ، بالفعل ، الا الجانب الخارجي للاشياء . والحال ، ان هذا الجانب خدّاع احيانا . اننا نفترض على اساس معطيات اعضاء الحواس ان «الشمس تشرق وتغرب» . ولكن هذا خداع ، كما نعلم . وعلى نفس الاساس ، نفترض ان الماء في الكأس «نقي كالدمع» . اما في واقع الامر ، فان فيه آلافا من المخلوقات الصغيرة الحية - الجراثيم . بيد اننا نتمكن بواسطة التفكير من ان نراقب ونفحص وندقق معطيات اعضاء الحواس . ان الانسان يذهب ابعد من الاحساسات بواسطة التفكير . وهذا يعني ان العقل البشري ، اذ يثق بالاحساسات ويستفيد من معطياتها ، ينفذ الى ما لا تستطيع الاحساسات النفوذ اليه .

ما هو اذن الدور الذي يلعبه التفكير في معرفة العالم ؟

اليكم هذا المثل . حلق طيار فوق مناطق مختلفة من البلاد السوفييتية ، واسترعى انتباهه ان حركة عقرب البوصلة المغنطيسي غير طبيعية فوق احدى المناطق . فقد كان العقرب المغنطيسي ، في

كل مرة تظهر فيها الطائرة فوق هذه المنطقة ، ينحرف فورا عن خط الشمال ـ الجنوب .

على اساس هذه الوقائع ، خلص العلماء الى استنتاج بان في جوف هذه المنطقة ، على ما يبدو ، مكامن كبيرة من فلزات الحديد . انها « تحرف » اشارات العقـرب المغنطيسي . وقد اثبت التنقيب الجيولوجي هذا الامر . وهكذا جرى اكتشاف فلزات حديدية .

بالطبع ، لولا هذه الوقائع الحاصلة على اساس معطيات اعضاء الحواس ، لما تمكن احد من ان يحدس بان كنزا ثمينا مخفي في هذه المنطقة . ولكن على الرغم من ان الاستنتاج حصل على اساس معطيات الحواس ، فانه مع هذا لم يحصل بالحواس ذاتها . ان الحواس تستطيع التقاط ما يرى ويسمع الخ . مباشرة . ولكن العلماء لم يروا فلزات الحديد ، بل « السلوك » الغريب للعقرب ، اي ما هو على سطح الظواهر . اما فلزات الحديد ، فكانت مخفية في اعماق الارض .

لقد اقتضى الامر من العقل البشري عملا كبيرا معقدا بغية استخلاص الاستنتـاج اللازم من هذه

الوقائع . على هذا النحو يخلص الانسان بواسطة التفكير الى استنتاج عن الجوهر ، عن الصلات الداخلية ، اي عن قوانين تطور الظاهرات . واذا كانت الاحساسات تربط الانسان مباشرة بالاشياء الموجودة ، فان التفكير يعكس العالم الخارجي بصورة غير مباشرة . وهذا يعني ان الاستنتاجات العقلية تصاغ على اساس المعطيات غير المباشرة . مثلا ، بغية معرفة ما اذا كان بامكان الانسان التحليق على متن سفينة كونية دون المجازفة بحياته ، اجريت في البدء تجارب على الحيوانات : فقد وضعت الكلاب في الصواريخ وعلى متن السفن الكونية . وعلى اساس المعطيات الحاصلة ، خلص العلماء الى استنتاجات عن امان تحليقات الانسان في الفضاء الكوني . وهذا ما اثبتته كليا بطولات الملاحين الكونيين الاوائل .

لا استنتاجات بدون وقائع . ان الوقائع هي الهواء الذي يتنفسه رجل العلم . وهذه الوقائع تعطيها الاحساسات ، اعضاء الحواس .

كيف تصاغ الاستنتاجات من الوقائع ؟

انها تصاغ بفضل خاصة التعميم (او التلخيص) عند **التفكير** . وهذه الخاصة تكمن في ان التفكير يجمع

في كل واحد العلائم الرئيسية ، الجوهرية المجردة من الوقائع ، ويكوّن المفاهيم والافكار العامة والصور ، ويصوغ استنتاجات تتسم باهمية عامة لصنف كامل من الظاهرات .

ان الحواس تزود العقل بالمعطيات والوقائع اللازمة . اما العقل ، فيصوغ على اساسها الاستنتاجات ، التعميمات (او التلخيصات) وهذه هي الدرجة العقلية للمعرفة . وبدون الحواس لا عمل للدماغ ، للعقل ، وبدون العمل المنظم الذي يقوم به الدماغ ، لا وجود للمعرفة الحسية . **وعليه ، تؤلف المعرفة الحسية والمعرفة العقلية مرحلتين لعملية واحدة لا تتجزأ للمعرفة وتتم على اساس التطبيق ، النشاط العملي .** ولا يجوز فصل احداهما عن الاخرى . غير ان مثل هذه المحاولات كثيرا ما جرت في تاريخ الفلسفة . فبعض الفلاسفة يقول ان الانسان يعرف العالم بواسطة العقل وحده دون سواه ؛ ولذلك يطلقون على هؤلاء الفلاسفة اسم **العقلانيين** (او العقليين) . والبعض الآخر يؤكد العكس ، فيزعم ان العالم يُعرف بواسطة الحواس فقط ، وهؤلاء يسمون **بالحسيين** .

ان قصـــور العقلانيين يكمن في انهم يرفضون

معطيات الحواس ، التجربة الشخصية . اما في الواقع ، فان العقل لا يعطي المعارف الجديدة الا عندما يغتني بالتجربة الشخصية ، بالانطباعات الحاصلة على اساس المعرفة الحسية للاشياء والظاهرات ، المكتسبة في التطبيق العملي .

ولكن يخطئ ايضا من يزعم ، مثل الحسيين ، بان التجربة الشخصية فقط او الادراك الحسي المباشر للواقع بواسطة اعضاء الحواس هو وجده القادر على اعطائنا المعارف عن العالم الخارجي .

اننا نرى ، بالتالي ، بانه لا يجوز المبالغة بدور احدى درجتي المعرفة وانكار دور الدرجة الاخرى . ففي عملية المعرفة ، تكون المعرفة الحسية والمعرفة العقلية على نفس الاهمية ولا وجود على الاطلاق لاحداهما دون الاخرى . ينبثق من هذا استنتاج هام عن وحدة النظرية والتطبيق .

دور التطبيق في المعرفة

ان المعرفة الحسية والمعرفة العقلية تتمان في مجرى التطبيق ، في مجرى النشاط العملي . فلو ان الناس لم يقوموا باي عمل ، لكان من المستحيل ان

يكون لديهم اية معارف ، وليس هذا فحسب ، بل لما كان بوسعهم البقاء والعيش . ان الناس ، اذ انفصلوا عن عالم الحيوانات ، لم تكن لديهم اية معارف نظرية عن تطور الطبيعة ، ولكنهم كانوا يكدحون : كانوا يسعون وراء طعامهم ويبنون مساكنهم ويتعلمون صنع الكساء . وفي تجربة الحياة اليومية ، تعلم الانسان كل ما كان يلزمه في صراعه ضد الطبيعة .

وهذا ما تؤكده التجربة اليومية . فالانسان يولد في الدنيا دون ان تكون لديه اية معارف . وهو يكتسبها بمقدار اصطدامه بالظاهرات المحيطة به ، في سياق التطبيق ، في سياق النشاط العملي . فعندما يجهد الطفل نفسه مادا يديه نحو النار بغية مسكها ، لا يعرف خواص النار بعد ، الا انه سرعان ما يعرف هذه الخواص من تجربته في التطبيق ، فيكف عن القيام بمحاولات للاقتراب من النار . انه يكتسب معرفة معينة .

ولكن هذا لا يعني بالطبع انه لا يدخل في التطبيق الا تجربة الناس الشخصية . ففي نشاطنا ، لا نستفيد من تجربتنا وحسب ، بل ايضا من تجربة الآخرين ، اي من التجربة الاجتماعية للبشرية بأسرها . ان

التطبيق الاجتماعي هو مجمل نشـــاط النـــاس الذي يؤثرون في مجراه على العالم المادي ويغيرونه ، وبهذا نعني : النشاط الانتاجي ، النضال الطبقي ، حركة التحرر الوطني ، البناء الاشتراكي ، الاختبار العلمي الخ .. ان جميع المعارف قد حصلت وهي تحصل في آخر الامر من التطبيق الاجتماعي للبشرية . وهذا ما يتضح من معطيات تاريخ العلم .

مثلا ، كيف نشأت الهندسة ؟ منذ اقدم الازمان والناس اذ يفلحون الحقل ويبنون المسكن ، يصطدمون على الدوام بحاجة قياس قطع الارض المختلفة من حيث المساحة والشكل . وبالتدريج اكتشفوا ان هناك طرائق عامة للقياس تصلح لمسح اية قطعة من الارض اذا كان لها شكل معين : اذا كان سطحها مثلث الاضلاع او بشكل مربع منحرف او مختلفة التوازي الخ . . هكذا ينشـــأ كل علم ويكون بمثابـة تعميم (تلخيص) للتطبيق .

وهكذا **فان المعرفة العلمية والنظرية تنشآن من التطبيق العملي الذي هو اساس المعرفة .**

التطبيق ، النشاط العملي ، ليس فقط اساس المعرفة ، بل هو ايضا **القوة المحركة للمعرفة** . مثلا ،

لو وضعت الحياة مهمة ايجاد افضل اسلوب لفلاحة الارض ، فان هذه المهمة التي وضعها التطبيق هي بمثابة حافز كبير لتطوير العلم الزراعي .

يعلّم لينين ان وجهة نظر الحياة ، وجهة نظر التطبيق ، النشاط العملي ، هي التي يجب ان تكون وجهة النظر الاولى والاساسية لنظرية المعرفة .

ولكن ، ألا يقلل هذا من اهمية النظرية والعلم في النشاط الانتاجي او الثوري ؟ ان المحرفين اعداء الماركسية يحاولون البرهنة وكأن الماركسيين-اللينينيين ينكرون دور النظرية اذ يتحدثون عن الاهمية الاولية للتطبيق بالنسبة للمعرفة . انهم يتهمون الماركسيين بـ « الروح العملية الضيقة » ، اي بـ « اهمال » النظرية . ولكن هذا اختلاق من اوله الى آخره . فالاحزاب الماركسية-اللينينية بأسرها اولت وتولي النظرية اهمية بالغة . وقد علّم لينين ان النظرية تضيء طريق التطبيق .

ولذا ، كان الاعتراف « فقط » باهمية التطبيق او « فقط » بالنظرية امرا غريبا على المادية الديالكتيكية .

ان وحدة ديالكتيكية توجد بين النظرية والتطبيق . ومن غير الممكن الفصل بينهما . فالنظرية تتولد من التطبيق ، ولكنها في الوقت نفسه تخدم التطبيق وتغنيه . ويستحيل وجود النظرية بدون التطبيق . ولكن بدون نظرية ثورية يستحيل التطبيق الثوري كذلك . ان النظرية ميتة بدون التطبيق ، اذ ان الاحكام النظرية في هذه الحالة تكون حملا ميتا . ولكن بدون نظرية علمية يكون التطبيق اعمى ، محروما من الآفاق ، وبدون النظرية العلمية تستحيل القيادة الكفوء للمؤسسة وللتعاونية وللبلاد ككل .

ينجم من هذا ، مثلا ، انه من غير الممكن وجود اختصاصي قدير مثقف نظريا اذا هو مارس دراسته بعزلة عن النشاط العملي ، الانتاجي . وعندما يجتهد الاختصاصي المقبل في الانتاج ويحصل على تجربة معينة وعادات معينة ، عند ذاك فقط ستكون لمعلوماته النظرية جذور قوية . وهذا ما تؤكده الحياة .

وهكذا ، **فان الوحدة الوثقى بين النظرية والتطبيق هي استنتاج هام للغاية استخلص من نظرية المعرفة**

الماركسية . ان الناس يقرأون ويعرفون كتاب الطبيعة تدريجيا ، صفحة بعد صفحة .

مثلا ، بقي الجانب الآخر للقمر لقرون عديدة غير معروف . بل انه وجد فلاسفة صرحوا جهارا ان الانسان لن يكتشف ابدا اسرار الجانب الآخر للقمر . ولكن تبيّن ان الامر ليس كذلك بتاتا . فقد صنع السوفييتيون منشأة اوتوماتيكية كونية طارت حول القمر وصورت جانبه الآخر غير المنظور من كوكبنا . ان هذا المكسب الذي احرزه العلم هو دحض عملي آخر للاادرية . ومن ذا الذي سيصدق اللاادريين الآن بان هناك ما يسمونه «حدود» المعرفة ، في حين اقتحم الانسان الفضاء ووسع بصورة كبيرة جدا حدود معارفه عن الكون .

ان البشرية تتخطى حاجزا بعد آخر في معرفتها للطبيعة . وبهذا يرتبط التفاؤل العميق المشرق للفلسفة الماركسية-اللينينية ، وطابعها الحيوي الراسخ ، وثقتها العميقة بعقل الانسان .

ينجم عن هذا كله بان **المعرفة البشرية تتطور من اللامعرفة الى المعرفة ، من المعرفة غير التامة الى المعرفة الاتم اكثر فاكثر على الدوام .**

اننا اذ نعرف العالم ، نعلم الحقيقة عنه ونمتلك المعارف الحقيقية .

ما هي الحقيقة

معلوم لنا من الحياة اليومية اننا نسمي بالمعرفة الحقيقية تلك المعرفة التي لم ينسجها الخيال ، وانما التي تتطابق مع ما يوجد في الحياة نفسها . الحقيقة هي الامر الحقيقي . انها على نقيض الضلال والخطأ . ان اقوالنا كاذبة اذا كانت تؤكد ما ليس له وجود في واقع الامر ، في الحياة الواقعية . على هذا الاساس يقوم الفهم المادي للحقيقة .

وهكذا ، بما ان المعارف البشرية لا تكون حقيقية الا حينما تتطابق مع الواقع ، فانها لا تعتمد على هوى الناس ورغباتهم . وبهذا ترتبط اهم فكرة عن **موضوعية الحقيقة** . وهذه الفكرة طرحتها لاول مرة وحلتها الفلسفة الماركسية-اللينينية .

يسمي لينين في مؤلفه «المادية والمذهب النقدي التجريبي» **حقيقة موضوعية محتوى من التصورات البشرية ليس رهنا بالذات ، ليس رهنا بالانسان ولا بالانسانية .**

كيف ينبغي فهم هذا ؟ فهل تكون الحقيقة هي الطبيعة نفسها ، بسبب انها توجد موضوعيا ، اي مستقلة عن الانسان والانسانية ؟ كلا ، ان فهم الحقيقة الموضوعية على هذه الصورة يكون خطأ . ان ما هو موجود لا يمكنه ان يكون لا حقيقيا ولا كاذبا . انه يوجد وحسب . ان ما يكون حقيقيا او كاذبا هو معارف الناس وآراؤهم وتأكيداتهم عما هو موجود ، وليس الواقع نفسه .

قد يبرز سؤال آخر . اذا كانت الحقيقة هي معارف الناس ، فلماذا نؤكد اذن انها لا تتوقف على الانسان والانسانية ؟ أليس الناس بعملهم وابحاثهم العلمية يمتلكون هذه او تلك من المعارف العلمية ؟ ان بعض الناس يحاكمون على هذا النحو بالذات . انهم يقولون : طالما ليس هناك حقيقة بدون انسان ، فلا وجود للحقيقة الموضوعية ايضا ؛ ان الحقيقة دائما ذاتية ورهن بالانسان . ولكن هذه المحاكمة غير صحيحة .

بدون الانسان ، لا وجود للحقيقة بالفعل . ولكن ما يؤلف محتواها ليس رهنا بالانسان . فليست رغبات الناس هي التي تحدد حقيقة اقوالهم وآرائهم ،

وانما يحددها تطابقها مع الواقع الموضوعي ، مع ما يوجد في العالم مستقلا عن الانسان . ولهذا السبب يقول لينين بان الحقيقة الموضوعية ليست رهنا بالانسان والانسانية اي ليست رهنا باهواء الناس . فالانسان لا يوجد الحقيقة ، وانما يعكسها بالتوافق مع ما يوجد في الواقع الموضوعي .

ينجم عن هذا ان من الهام الاستناد في نشاطنا العملي ، في حياتنا اليومية ، الى اقوال ومحاكمات تتفق مع الواقع . ولكن ما الذي يعطي الناس ضمانة صحة معارفهم وتوافق هذه المعارف مع الواقع ؟ اي اين **المعيار** ، اين مقياس صحة معارفنا ؟

يزعم بعض الفلاسفة البرجوازيين ان الفكرة تكون حقيقية عندما تكون نافعة ، مفيدة للناس . وهؤلاء الفلاسفة يسمون انفسهم بالذرائعيين ، بانصار المذهب العملي ، البراغماتية . (من الكلمة اليونانية « Pragma » وتعني العمل ، الفعل) . ان معيار الحقيقة ، الذي يشيرون اليه ليس موضوعيا ، بل ذاتي . فالمعلوم ان النظرية او الفكرة الكاذبة السخيفة قد تكون في بعض الاحيان نافعة جدا لهذا الانسان او ذاك او حتى لطبقة كاملة . مثلا ، من الافكار السخيفة بوضوح تام

فكرة رسالة المستعمرين «التمدينية» . وهي نافعة لمضطهدي الشعب الكادح ولكنها كاذبة .

ولكن أليست النظريات الحقيقية نافعة ؟ ألا تخدم احكام الرياضيات والفيزياء اهدافنا ؟ لا شك في انها نافعة للناس . غير ان هذه النظريات ليست حقيقية لانها نافعة . بل بالعكس فانها نافعة للناس لانها على وجه الضبط حقيقية وتعكس بصورة صحيحة العالم الواقعي .

يقول فلاسفة آخرون : الحقيقة هي ما يوافق عليه كل الناس ، او الاغلبية . انهم يعتبرون هذا بالذات معيار الحقيقة . ولكن هذا المعيار ذاتي . فما من فرق كبير اذا وضعنا الحقيقة تبعا لرغبات بعض الناس او اناس كثيرين . فثمة ظروف لا يضل فيها بعض الناس فحسب ، بل يضل فيها ايضا اناس كثيرون .

فأين هو اذن معيار الحقيقة الذي لا يكون رهنا برغبات الناس وآرائهم ، اين هو هذا المعيار الموضوعي ؟ ان هذا المعيار هو **التطبيق الاجتماعي** . فنشاط الناس العملي هو السبيل الوحيد الصادق لاختبار صحة او كذب آرائنا ونظرياتنا وتصوراتنا .

وقد كتب ماركس يقول ان على الانسان ان يثبت في التطبيق صحة وقوة تفكيره .

فاذا اثبت التطبيق معارفنا الحاصلة نتيجة دراسة الواقع ، عنى هذا انهـــا حقيقية صادقة ولا داعي للتشكك فيها . ان تحليق الصاروخ السوفييتي الى القمر جرى حسابه بدقة متناهية بما في ذلك الدقائق والثواني . وعندما هبط الصاروخ على القمر في المكان المحدد سلفا وفي الوقت المعين بالضبط ، كان ذلك تأكيدا عمليا لصحة حسابات العلماء السوفييت . اما النظريات التي لا تصمد للاختبار في الحياة ، في التطبيق ، فهي ، على العكس ، نظريات كاذبة . مثلا ، لم تصمد لامتحان الحياة والتطبيق النظريات التي تحاول اثبات ابدية الرأسمالية . ان التطبيق عند شعوب كثيرة قد طوح بهذه النظريات بوصفها نظريات كاذبة .

لماذا نقوم باختبار صحة معارفنا بواسطة التطبيق ؟ لفهم هذا ، ينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار ما يلي . اننا لا نعرف الواقع من اجل فضول باطل لا نفع فيه . ان فكرة المخترع والعالم لا تصبح قيمة الا عندما يمكن تحقيقها في الحياة . ولكن ، هل كل

فكرة يمكن تحقيقها ؟ كلا . لا يمكن تحقيق غير الفكرة الحقيقية ، الصحيحة . فالافكار الكاذبة لا يمكن تطبيقها لانها لا تتفق مع الواقع . لهذا السبب بالذات نحن نختبر صحة معارفنا بالتطبيق .

وبالتالي ، ان ما يتفق مع الواقع هو ما اثبته التطبيق العملي والذي بحكم هذا يمكن تحقيقه عمليا .

مثلا ، عند تقدير نشاطنا الانتاجي والعملي والاقتصادي والسياسي ، علينا الاسترشاد بمعيار واحد : ما هي النتائج العملية لهذا النشاط . ان الحياة في هذه الحالات هي اسمى قاض . فاذا دحض الواقع حساباتنا وافتراضاتنا وفرضياتنا ، علينا ان نجد الشجاعة للتخلي عنها ، وعلينا بتعميق معارفنا ان نجعلها تتفق مع التجربة والتطبيق . اما حينما نعاند ونأبى اخذ وقائع الحياة بالحسبان ، فاننا نقع دائما في وضع حرج .

كذلك يستخدم الناس دائما التطبيق كمعيار للحقيقة بغية معرفة قيمة هذه او تلك العهود والوعود والاقوال . ان الاعمال الفعلية هي افضل اختبار لها .

وهكذا ، اوضحنا ان **التطبيق العملي هو معيار الحقيقة ومصدر المعرفة وهدفها .**

والآن من الضروري ايضاح مسألة كيف نعرف الحقيقة الموضوعية : أنعرفها دفعة واحدة وبالاجمال ام باجزاء ؟

ان العلم بمجمله لا يستطيع «انهاء» عملية المعرفة . فتاريخ العلم يشهد على ان اي حقيقة علمية لم تنكشف دفعة واحدة ، بل تدريجيا ، خطوة بعد خطوة . ما هو تفسير هذا ؟

ان كل انسان يدرس الطبيعة بواسطة الوسائل التي يستطيع الحصول عليها من المجتمع .

لقد كان وقت لم تكن لدى العلماء فيه حتى الموازين البسيطة ومقيـــاس الحرارة ، فضلا عن الميكروسكوب والتليسكوب ، الخ . . ان هذا قد حدّ بالطبع من امكانية معرفة العالم . اما الآن ، فان العلم مسلح باجهزة في غاية التعقيد . ولكن هل من مجال للشك في ان الاجهزة ستزداد في المستقبل اتقانا ، وان الناس سيعرفون عن الطبيعة اكثر بكثير مما يعرفونه الآن ؟

ولكن ، طالما لا توجد معارف تامة مكتملة ، وطالما هي جميعها نسبية ، فهل توجد اذن **الحقيقة المطلقة** ، اي الحقيقة الكاملة التامة التي تحيط بكل شيء ؟

يجيب بعض الفلاسفة عن هذا السؤال كما يلي : لا وجود للحقيقة المطلقة ، ان الموجودة هي **حقائق نسبية** فقط . ففي معارفنا ، كل شيء عابر ، كل شيء يجري ، ما من شيء دائم . هذا ما يقوله هؤلاء الفلاسفة . لهذا السبب يسمونهم النسبيين .

ويحاكم فلاسفة آخرون على نحو يختلف . يقول هؤلاء ان الحقائق التي تهرم وتحتاج الى تصحيح ودراسة اضافية ليست حقائق ابدا . ان شأننا مع الحقائق المطلقة المكتملة فقط . ان الفلاسفة الذين يحاكمون على هذا النحو هم دوغماتيون ، اي عقائديون متحجرون . فالحقائق بالنسبة لهم عقائد ، اي احكام لا تتغير اعطيت مرة واحدة والى الابد .

انهم يقولون : يستحيل الشك في ان حاصل ٢×٢=٤ ، وسيكون ٤ الى الابد ، وان مجموع زوايا المثلث كان دائما وسيكون مساويا لزاويتين قائمتين ، وان باريس تقع في فرنسا . هذه هي الحقائق الابدية ، النهائية العليا ، اي الحقائق المطلقة .

ولكن هل مثل هذه الحقائق موجودة ، يا ترى ؟

اجل ان هذه الحقائق موجودة بالفعل . انها توجد في العلوم الخاصة بالطبيعة غير الحية ، مثلا ،

في الرياضيات وعلم الفلك والميكانيك . ففي واقع الامر ، يمكن ايجاد مثل هذه الحقائق هنا ، مثل ٢×٢=٤ . ولكن حتى في هذه العلوم المسماة بالعلوم الدقيقة ، ليست جميع الاحكام ابدية بالدرجة التي يفكر فيها العقائديون المتحجرون . ففي علم الفلك والفيزياء والكيمياء ، توجد مئـــات الفرضيــات التي يدحضها التطور اللاحق للعلم .

ولكن ألا توجد ، يا ترى ، حقائق علمية ابدية ، اي حقائق لا يمكن ان تدحض في المستقبل ؟ ان المادية الديالكتيكية تعترف بوجود مثل هذه الحقائق . ولكن لاجل فهم هذا ، ينبغي قبل كل شيء تذكر ما اشار اليه لينين وهو ان الحقيقة هي عملية . فلا يجوز تصور الحقيقة على انها مكتملة للطبيعة بأسرها وتحيط بكل شيء . ان عملية ادراك الحقيقة المطلقة ليس عمل لحظة خاطفة ، بل طريق للمعرفة معقد ، تاريخي ، لا نهاية له . والبشرية لن تنهيه ابدا ولن تنجزه ابدا .

ان عملية ادراك الحقائق المطلقة تجري عن طريق تكديس الحقائق النسبية . وتطور المعرفة يكمن في ان هذه الحقائق النسبية ، اذ تتكدس تدريجيا ،

تقرب الانسان من معرفة الطبيعة بأسرها ، من معرفة ظاهراتها وقوانينها . فكما ان الكل يتكوّن من اجزائه ، فان الحقيقة المطلقة تتكون من الحقائق النسبية في عملية لا نهاية لها من تطور المعرفة .

ان مثل هذا الفهم للحقيقة المطلقة – بوصفها مجموع حقائق نسبية في عملية تطورها – موجه ضد الفصل الميتافيزيائي بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية . فلا وجود لحد لا يمكن عبوره بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة . واننا اذ ندرك الحقائق النسبية في معرفتنا ، نحصل في الوقت نفسه على شذرات قيمة من الحقيقة المطلقة .

لنأخذ هذا المثل على الاقل . قبل اكثر من الفي سنة كان المظنون ان جميع الاجسام تتكون من جسيمات دقيقة لا تنقسم – ذرات . اما الآن ، فقد اثبت العلم ان الاجسام تتكون بالفعل من ذرات ولكن هذه الذرات نفسها قابلة للانقسام . وهذا يعني ان ظن الاقدمين كان حقيقة نسبية . غير ان هذه الحقيقة احتوت على شذرات من الحقيقة المطلقة وقوامها ان الذرات موجودة بالفعل . ولكن هذه الذرات تتكون من جسيمات اكثر صغرا . الا ان هذا

لا يعني ان العلم قد استنفد امكانياته في هذا المجال . فتركيب الذرة ستجري دراسته بصورة اعمق فاعمق وستتطور بالتالي نظرية الذرة حتما . ومن هنا نرى ان كل حقيقة نسبية تحتوى على شذرات من الحقيقة المطلقة .

وهكذا نعرف الحقيقة المطلقة ليس دفعة واحدة وانما بالتدريج ، بواسطة معرفة الحقائق النسبية . اما مجموع الحقائق النسبية في تطورها ، فيعطينا معرفة تامة عميقة مطلقة سواء عن الطبيعة ككل او عن هذا الجانب او ذاك من الواقع الموضوعي .

ان المادية الديالكتيكية تعلّم أن **الحقيقة دائما ملموسة .**

ان الحقيقة الملموسة هي الحقيقة التي ينعكس فيها بصورة صحيحة جوهر ظاهرات معينة والظروف التي تتطور فيهـــا . وخلافا لذلك ، لا تأخذ الحقيقة المجردة بالحسبان الوضع الملموس والظروف التي تتطور فيها الظاهرات . على هذا النحو يسلك العقائديون المتحجرون . مثلا ، لا تجوز الاجابة بصورة مجردة على السؤال التالي : اية طرائق يجب ان يسلكهـــا النضال في سبيل السلم والديموقراطية ؟ فليس من

الممكن الحصول على جواب صحيح عن هذا النوع من الاسئلة الا بعد تبيان الظروف الملموسة التي تدور فيها رحى هذا النضال . اذ ان من الضروري اعتبار الظروف في البلدان التي تحررت من نير الرأسمالية ، لأن هذه الظروف تختلف عن ظروف البلدان التي ما زالت تناضل في سبيل تحررها الخ ..

ولذا ، **تتطلب الماركسية الخلاقة دوما مراعاة الظروف الملموسة والوضع التاريخي الذي يجري فيه نشاطنا . هنا يقوم جوهر الموقف التاريخي الملموس من ظاهرات الواقع .**

هذه هي متطلبـــات نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية .

خـــــاتمـــــة

في العصر التاريخي الراهن الذي يتم فيه الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، اشتد لدرجة هائلة انجذاب شعوب العالم نحو مذهب الماركسية-اللينينية . ان النظرة الماركسية-اللينينية الى العالم تستحوذ بشدة متزايدة ابدا على افكار واماني البشرية التقدمية .

ان انتشار فلسفة الماركسية-اللينينية يجري حاليا في جو من الصراع العنيف ضد الفلسفة البرجوازية المعاصرة .

ان الفلسفة الماركسية-اللينينية تثبت حتمية هلاك الامبريالية ، هذا النظام القديم المتعفن ، وتؤكد انتصار النظام الاجتماعي الجديد على الارض . وهذا ما يجعل جميع المدارس والتيـــارات في الفلسفة البرجوازيـة المعاصرة تهب جبهة واحدة للدفاع عن الانظمة القديمة وتخوض حربا ضد الافكار التقدمية الجديدة .

ان جذور الفلسفة الماركسية عميقة في الحياة

وفي الواقع والتطبيق . انها البوصلة المجربة والمرشد في الحياة اليومية وفي النشاط اليومي .

ان شعوبا كثيرة في العالم تبني المجتمع الاشتراكي الذي يتطلب عملا خلاقا ملهما حقا . وهي لن تجد في طريقها الانتصارات العظيمة وحسب ، بل ستجد ايضا صعوبات النمو اليومي . وفي هذه الظروف ، لا بدّ من معارف عميقة ملموسة يعطيها العلم المعاصر . ولكن هذا لا يكفي لبناء صرح الشيوعية المشرق . فالاعمال والمنجزات العظيمة تقتضي اعظم الطاقة ، طاقة الشعب بأسره . وبدون الايمان العميق بعدالة المثل الاشتراكية العظمى ، تستحيل ايضا الاعمال العظيمة التي تتحقق في مجرى البناء الاشتراكي . وهذا الايمان الداخلي ، هذا الاستعداد لبذل كل القوى لما فيه خير الشعب والاشتراكية ، انما تربيه الفلسفة الماركسية-اللينينية – المادية الديالكتيكية .

ان المادية الديالكتيكية ، النظرة العلمية الى العالم ، تربي الايمان الراسخ بحتمية انتصار الاشتراكية في العالم اجمع . وهذا الايمان ليس عديم المبالاة ، ليس سلبيا . ان هذا الايمان ينبثق من المعرفة العميقة للقوانين العامة للتطور الاجتماعي ، التي اكتشفتها

الماركسية-اللينينية . وبحكم قوانين التاريخ التي لا ترحم ، حلت اليوم الحياة الجديدة لشعوب البلدان الاشتراكية محل الرأسمالية الصائرة الى الزوال ، واخذت كذلك البلدان المتحررة من سيطرة الامبريالية السياسية والاقتصادية والفكرية تبني الحياة الجديدة .

12*

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ٢١ ،
موسكو – الاتحاد السوفييتي

12—623